وفاء وأخواتها

قصص عربية



ناصر بن سليمان العُمري

وفاء وأخواتها

قصص عربية

ناصر بن سليمان العُمري

ⓒ ناصر سليمان محمد العمري، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري، ناصر سليمان محمد

وفاء وأخواتها / ناصر سليمان محمد العمري. — الرياض، ١٤٢٩هـ

١٦ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٩ — ٠٤٢٤ — ٠٠ — ٦٠٣ — ٩٧٨

١— القصص القصيرة العربية — السعودية أ. العنوان

ديوي: ٨١٣.١٩٥٣١ ١٤٢٩/٢٣٥٩

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٢٣٥٩

ردمك: ٩ — ٠٤٢٤ — ٠٠ — ٦٠٣ — ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

توزيع

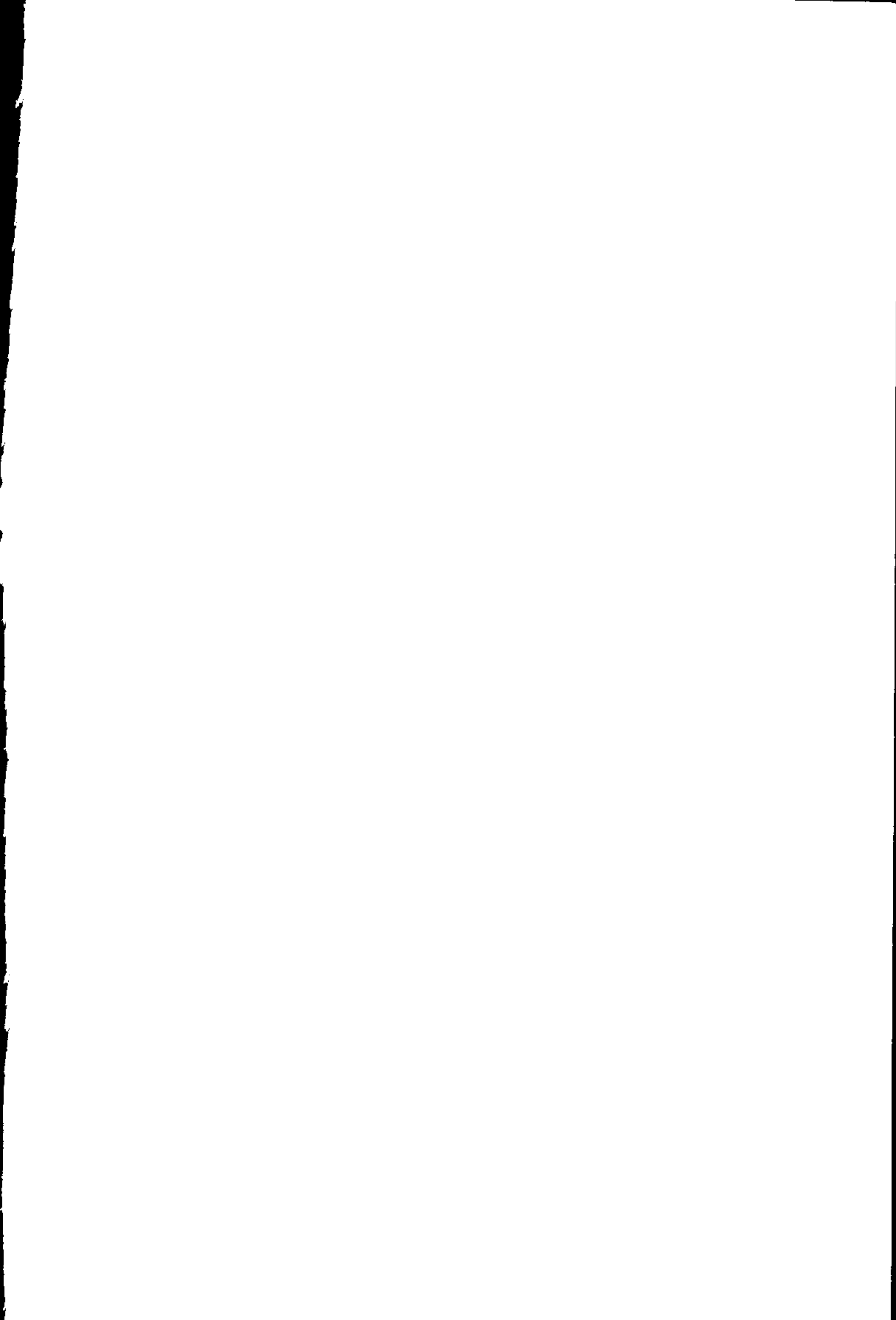
مكتبة العبيكان

الرياض — العليا — طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز البريدي ١١٥٩٥

هاتف ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

محتويات الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الأدب العربي متهم بجدبه من القصة تارة ! وضعف خصوبته في القصة تارة أخرى مع أن الثقافة العربية بفضل الإسلام ورجال العلم والثقافة والأدب منذ فجر الإسلام حتى الآن لا تعدلها ثقافة، ولا تدانيها ثقافة أخرى! وفي نظري أن هذا الاتهام باطل وظالم ومتجن على الأدب العربي! ولا أريد الدفاع عن الأدب العربي بقلة خصوبته المزعومة أو ضعفها أو ضحالتها في دنيا القصة بكون الإنسان العربي يميل إلى الواقع ؛ ولا بكونه قد تأثر بالتراث الإسلامي، والتراث الإسلامي يحث على الصدق، والقصة قد تعتمد على الخيال في نسجها وسياقها وعرضها صورة من صور الحياة الواقعية أو المستوحاة من الخيال، وقد يجنح الخيال إلى الكذب ولا أريد الدفاع عن هذا الخط ذلك أن القرآن قد قص على الناس أحسن القصص الصادقة في العبر بحياة رجال ماضيين وحياة أمم ماضية في سورة يوسف عليه السلام وغيرها وفي القرآن الكريم سورة اسمها ((القصص)) ولا أريد أن أقول بأن الحرمان في صغر الإنسان يوسع خياله ويجعله في استكمال قوته قادراً على كتابة القصة، وأن الإنسان العربي يولد وفي فمه ملعقة من ذهب؟!

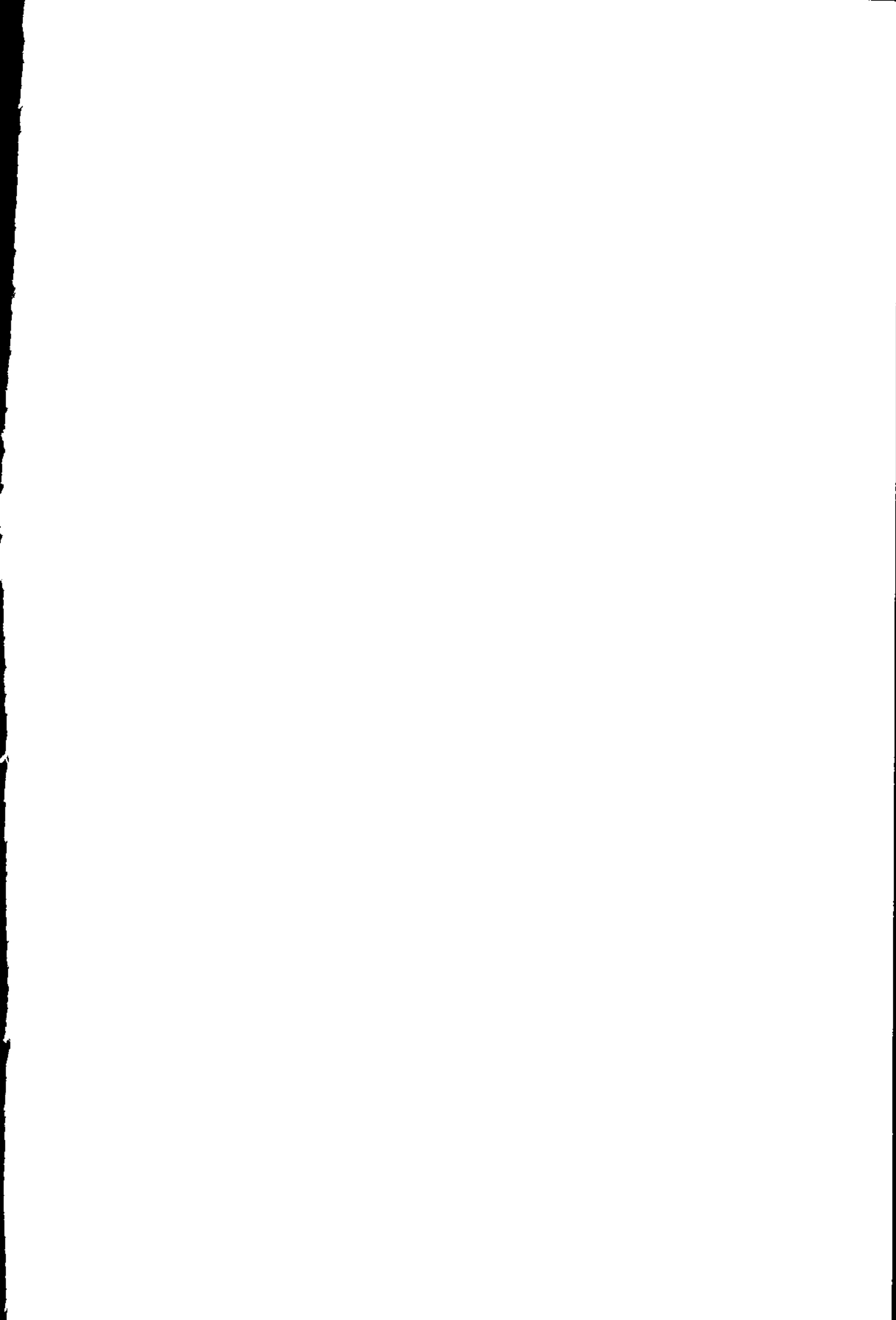
ولكنني أقول: إن التراث العربي له نصيب كبير من القصة فحياة عنترة بن شداد العبسي قصة، ومقامات بديع الزمان الهمذاني مجموعة قصصية ومقامات الحريري مجموعة قصصية، وكليلة ودمنة في نظري

داخلة في التراث العربي سواء كانت من وضع الكاتب الفارسي عبدالله ابن المقفع الذي وضعها بلغتنا العربية، أو كانت مترجمة من الهندية إلى العربية. وإن كان في المقامات ما لا يرتقي إلى القصة ويستحق أن يصل لدرجة الحكاية، وبعضها يرتفع من القصة إلى الرواية وهذه في غير المقامات وهناك قصص عربية أخرى غير ما أشرت إليه وهناك قصص عربية وضعها كتاب عرب معاصرون في آفاق الفكر ومناحي الحياة؛ وقبل هذا العصر، وقد رغبت في المساهمة بخدمة المجتمع بكتابة هذه المجموعة القصصية التي كتبتها في فترات من حياتي! وهي ليست كل ما كتبته في القصة فقد كتبت غيرها ضاعت وفقدت وانطفأت حروفها مع مرور الأيام ولم يكتب لها البقاء في دنيا القصة ومن يدري لعلها ولدت غير صالحة للبقاء أو لعل المناخ غير صالح لبقائها؟ أرجو أن تكون هذه القصص التي أقدمها بين يدي القارئ العربي الكريم نافعة لأمتي وبلادي في الحاضر والمستقبل والنفع من الله والخير أردت وأسأل الله العون والعفو والعافية! إنه جواد كريم!

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد.

بريدة ١٣٩٢/١٢/١٧هـ

ناصر بن سليمان العُمري



زائــر

بـدأت الـدراسـة في المـدارس المتوسطة، فأقبل الطالب محمد على مدرسته المتوسطة برغبة صادقة للنهل من منهل العلم في فصله الدراسي يدفعه الارتواء لعطشه للعلم فقد كان والده يحثه على التعلم؛ ودرجاته الكبرى المتناسقة التي حصل عليها في اختبار النقل لعام (١٣٨٣هـ - ١٣٨٤هـ)، ومضى الشهر الأول من السنة الدراسية وهو مجد في دروسه مستقيم في سلوكه بين زملائه، ومعروف لدى معلميه بالمثابرة على الدراسة، وأداء الواجبات المدرسية في المنزل، وحصل مالم يكن في حسبان الطفل محمد! حصل ما لم يكن يتوقع! حصل ما لم يتعود عليه وما لا يحتمله كثير من الصبيان؟ فلقد مرض والده وصارت تتنازعه مشاغل البيت ومتطلبات علاج أبيه وأمور دراسته، يالها من مشاغل كثيرة بالنسبة لطفل مجد في دراسته أخذت مشاغله تقتل وقته؛ وتتفاعل مع عوامل الطموح في نفسه، وتوشك أن تتغلب عليها، وازدادت وطأة المرض وحدته وآلامه على والده وعلى نفس الطفل المشغول.

وفي منتصف السنة الدراسية جاء الموت يدق باب البيت بعنف لينتزع رئيس الأسرة من بين أهله ومات الأب! ولم يكن الصبي قد شاهد ميتاً قبل أبيه ولكنه احتمل النكبة بصبر وجلد ولكنه صبر طفل وجلد طفل كبير في طموحه أراد أن يهون وقع الألم في نفوس والدته وإخوانه الصبية الصغار مضى الأب لسبيله و ووري في الأرض وتقبل الصغير تعازي أقاربه وجيرانه بجوار قبر أبيه، وعاد مع جيرانه وأقاربه إلى البيت يشيعونه بعد أن أنهوا تشييع أبيه!

دخل محمد على أمه وقبلها دون أن يقول شيئاً وقبل إخوانه الصغار

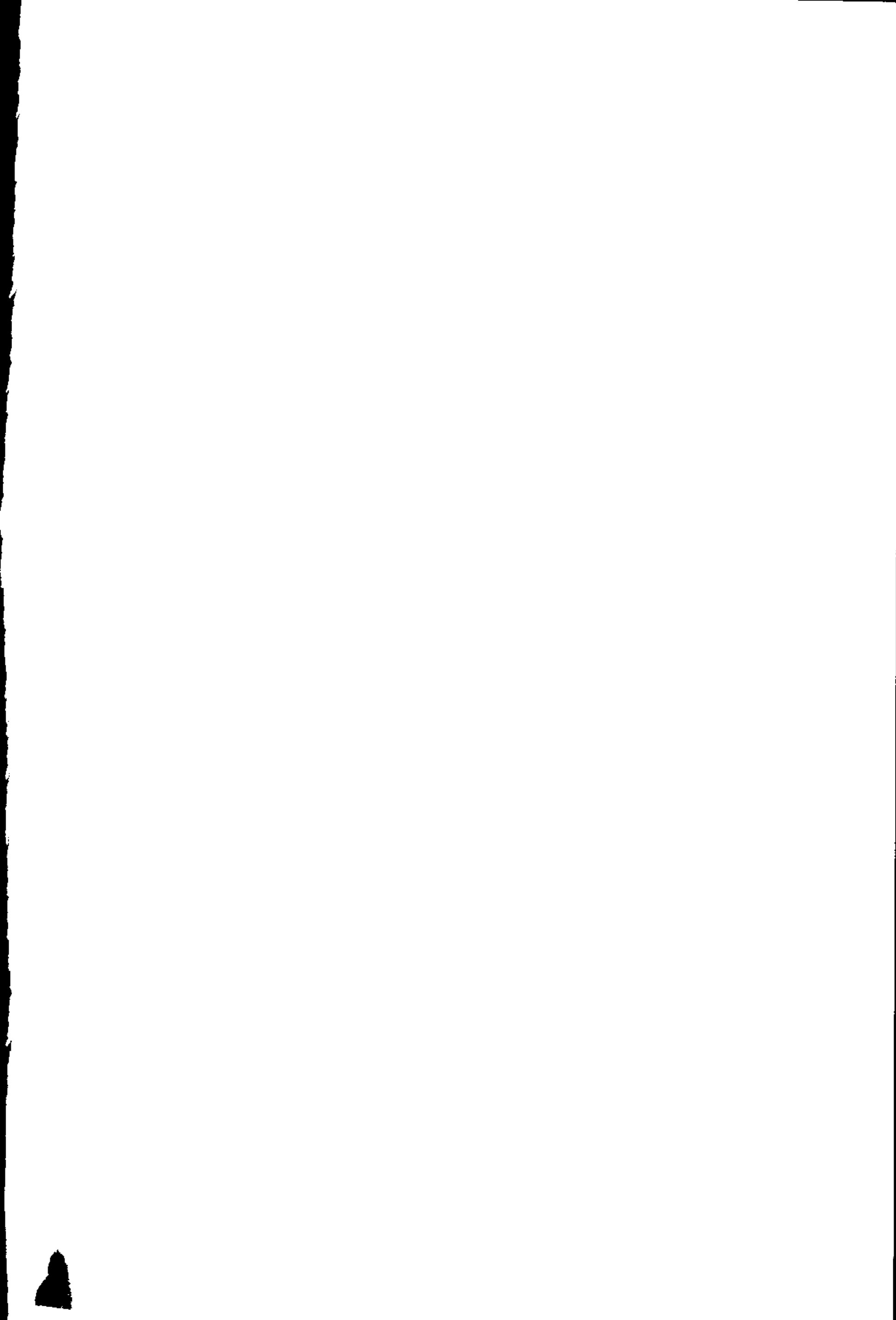
وتخلف في البيت ثلاثة أيام يتقبل التعازي ويؤانس أمه فهو أملها الكبير في هذه الحياة، وفي اليوم الرابع ذهب محمد إلى المدرسة يجر خطاه مثقلاً بهموم أسرته التي كان يحمل همومها والده، ويقي الصبي محمد يعول الأسرة وينفق عليها مما تقدمه له والدته يومياً من النقود القليلة التي خلفها أبوه، ومضت أيام الدراسة والابن عن والدته مشغول بين البيت والمدرسة يبذل كل ما في طاقته ووسعه لتخفيف آلام المصيبة عن والدته وأخوته، كان مجداً في دروسه بقدر ما تسمح له ظروفه العائلية، وقرب الاختبار والصبي التلميذ محمد يزداد اهتماماً بدروسه فخصص جزءاً من النهار ومعظم الليل للمذاكرة، ويدأ اختبار الكفاءة فإذا هو يذهب إلى المدرسة واثقاً من النجاح، فأدى اختبار الكفاءة بكل اطمئنان إلى الفوز بالنجاح، ونجح الطالب محمد وكانت حصيلة مجموع درجاته مائتي درجة! وبعد ظهور نتيجة الامتحان انصرف إلى الحصول على راتب ورثة والده فقد كان والده موظفاً في دائرة حكومية، ويدأ يلملم خدمات والده المبعثرة ولكنه لم يحصل عليها كلها، وحصل على راتب التقاعد بعد الوفاة وكان دون ما أمله فقد كانت لوالده خدمات في شطر من حياته الوظيفية لم يحصل على إثباتها من رئيس قسم جديد في عمله بمصلحة الرسوم، وانتهت العطلة الدراسية وفتحت أبواب المدارس تستقبل التلاميذ ومضى الصبي إلى المدرسة الثانوية يحمل أوراقه فأخبره مدير مدرسة اليمامة في الرياض أن درجاته لا تسمح له بدخول المدرسة الثانوية ! فأظلمت غرفة الإدارة في عيني الطفل وظل جالساً في مكانه لا يعقب على كلام المدير بشيء، وأخذ يتذكر المصائب والمتاعب التي مرت به، مرض أبيه، انشغاله بعلاج والده، قيامه على أمور أهله، محاولاته لتخفيف آلام أهله، دراسته؟ مذاكرته، سهره الطويل، وفاة والده، حزنه وحزن أهله على أبيه،

محاولاته لتخفيف آلام أهله، وتجمعت الخواطر في ذهن الصغير وسأل نفسه هل هو مقصر؟ وكان رده لا والله، إذن لماذا يحرمونه من الدخول في المدرسة الثانوية؟ وأين يذهب ليكمل دراسته الثانوية؟ إنه يريد أن يكون طبيباً فقد أدرك حاجة الناس إلى الطب والدراسة الثانوية هي الطريق إلى علم الطب؟ حاول الانصراف ولكنه تثاقل في إدارة المدرسة يبحث عمن يخلصه من ورطته، نقص خمس درجات في مجموع حصيلة الاختبار، لم يكن الصبي التلميذ محمد يشك في نزاهة الرجال الذين قاموا بتصحيح أوراق اختباره ولكنها أقيسة الاختبارات الدقيقة، إنها لا ترحم! ولا تقدر الظروف المتحكمة بالطالب، ونهض الطفل دون أن يفاتح مدير المدرسة في أمر ظروفه وقبوله وخرج من المدرسة وهو يتخيل الدرجات الخمس التي وقفت في طريقه إلى المدرسة فلم يستطع اجتيازها لقد وقفت كما وقف جدار برلين بين الألمان البواسل يختلس بعضهم النظر إلى شطري مدينته في حزن وألم نفسي، وقفت الخمس درجات كما يقف خط وهمي على الأرض بين بلادين من بلاد العالم تجمعهما أواصر القربى والتاريخ!! إنها خمس درجات علمية وليست خمسة ريالات يمكن اقتراضها من قريب أو صديق لو كانت غير موجودة لديه، وعاد الطفل إلى بيته وهو يقول في نفسه إنه تقدير العلم، ولكن ليس لي ذنب، ودخل الصبي إلى البيت وحيا والدته وجلس بجوارها بدأ يتكلم معها عن اعتذار المدرسة عن قبوله، فقاطعته الأم الحنون مستفهمة منه بقولها : ألم توضح للمدرسة أسباب ضعفك في الاختبار؟ ألم تخبرهم عن مرض والدك ووفاته وانشغالك بأمورنا بعد وفاة أبيك؟ وقبل أن يرد على أسئلتها الابن الكبير سأل أخوه الصغير أحمد عن أبيه : أين بابا!؟ أين بابا؟! هل هو في الطائف؟! وأجابت الأم صغيرها أحمد بقبلة حانية

على خده تغالب عبراتها محاولة ترضيته قائلة : أبشر سيأتي بابا، ويأتي معه بالحلوى، ورد الابن محمد قائلاً لم أخبرهم عن الأسباب التي أدت إلى ضعفي في الاختبار لأن المدرسة لها نظام ليس من وضعها لا تتعداه لأسباب لا تكفي عذراً إنهم يريدون مجموع درجات أكبر من مجموعي الذي حصلت عليه وبينما كانت الأم تتابع حوارها مع ابنها طرق الباب.

وكان مالك الدار هو الذي قرع الباب يريد أجرة البيت فقد توفي الأب قبل تسديد الأجرة لسنة خلت ! وانصرفت الأم تلملم وريقات نقدية متناثرة في صندوق الأب الفقيد لعلها تغطي أجرة الدار، وفي غرفتها وصل إليها ابنها محمد يحمل جملتين ما أقسى الحياة ؛ بل ما أقسى الإنسان، سمعت الأم شكوى ابنها الصبور؟ ولم يسمعها الزائر! وعادت تحمل في يدها أجرة الدار فسلمتها لصاحب الدار شاكرة له صبره على تأخير الأجرة قائلة شكر الله جميلك بصبرك على تأخيرنا أجرة دارك، وقبل انصرافه تذكر أنه تناول النقود من أرملة ثكلى وأنها تعول أيتاماً فأدرك أن عليه واجباً نحو هذه الأسرة فسأل المرأة عن وضع أولادها فأخبرته بمشكلة محمد مع الخمس درجات والمدرسة، فأبدى رغبته بمساعدته على حل المشكلة وفي صباح اليوم التالي أسرع إليه محمد في منزله وذهب معه إلى مدير التعليم في الرياض حيث كان الرجل في الطريق يستمع إلى شرح التلميذ محمد ظروفه التي مرت به، ودخل صاحب الدار إلى مدير التعليم ومعه محمد فشرح الرجل لمدير التعليم الظروف التي مرت بمحمد فكانت سبباً لقلة درجاته، وما إن أنهى الرجل شرح الأسباب لمدير التعليم حتى رفع سماعة الهاتف واتصل بمسؤول في وزارة المعارف وشرح له وضع الطالب وسبب قلة درجاته فاقتنع المسؤول الكبير في الوزارة بظروف الطالب وأخبر مدير التعليم هاتفياً بقبوله!

فتناول مدير التعليم قلمه وكتب أمراً إلى مدير المدرسة بقبوله بصورة استثنائية! وما إن رأى مدير المدرسة الأمر حتى قام بنفسه وأدخل الطالب في غرفة الدراسة، وجلس الطالب على مقعد الدراسة يتمتم بكلمات يدعو فيها الله أن يكرم الرجل الذي أدخله المدرسة ونظراته تتابع قلم الطباشير الذي يخط به المدرس على السبورة عناصر الدرس في الإنشاء وكان موضوع الدرس الإحسان وقد تخللت عناصر الموضوع كلمتان هما الدنيا بخير ! فقال التلميذ محمد صدقت الدنيا بخير! وأمضى بقية زمن الدراسة اليومي بين الرغبة في الدراسة والمحبة في إشعار والدته بقبوله، ولما انتهت الحصة الأخيرة من الدروس اليومية أسرع إلى الباب مهرولاً يقطع الطريق إلى الدار بسرعة فائقة يستعجل بها نهاية الطريق، ودخل إلى البيت وهو ينادي أمه بالبشرى بحل مشكلته يقول قبلوني في المدرسة ... قبلوني في المدرسة! فقبلت الأم أملها في الحياة وليدها الكبير محمداً وتمنت له نجاحاً مضطرداً وتفوقاً في النجاح ودعت لصاحب الدار بخير.

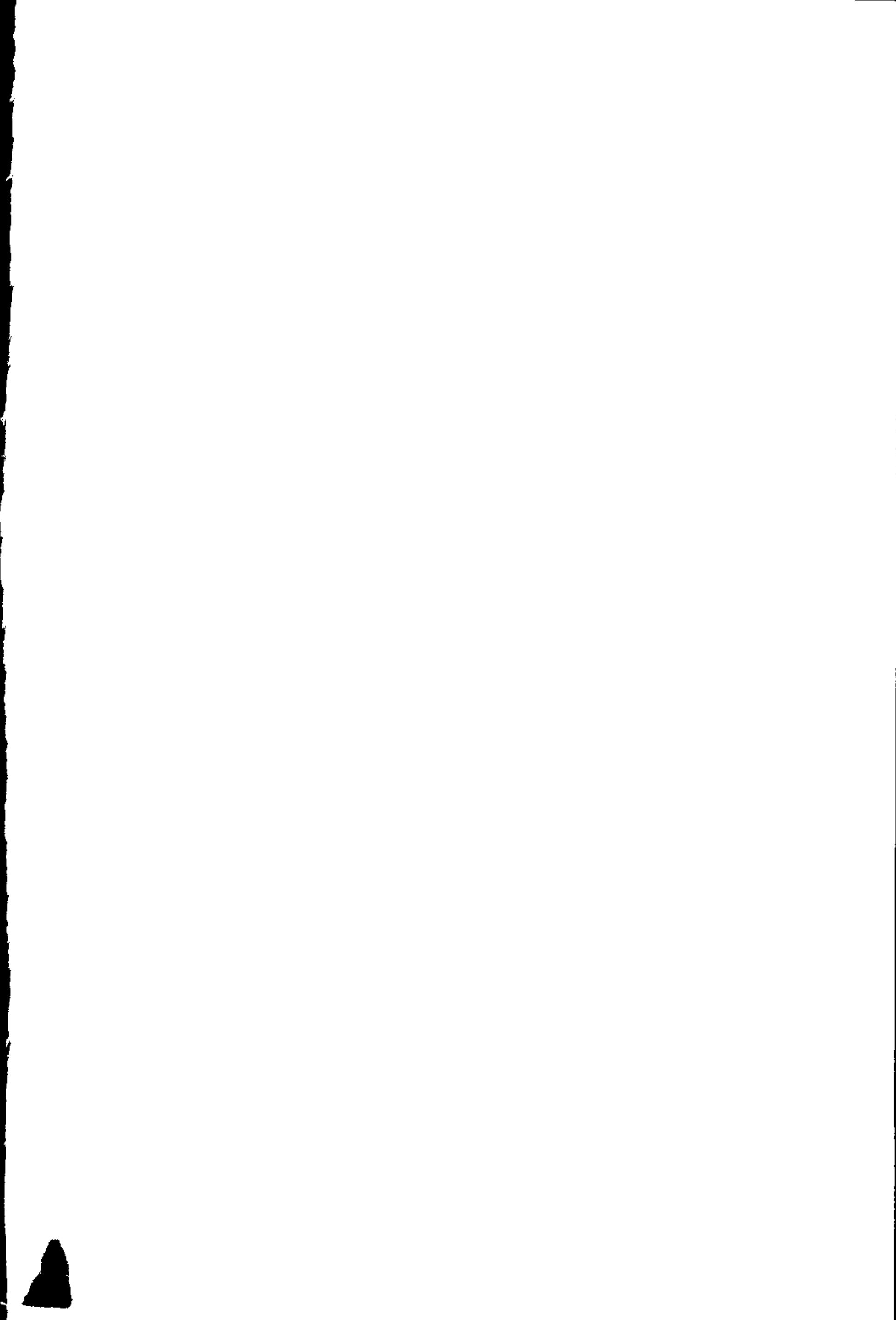


الحلاق الثرثار

هذا العنوان لا أعتقد أنه من العناوين الجديدة! وأعرف أن الحلاقين الثرثارين لهم قصص وأذكر أنني قرأت شيئاً من قبل، ثم إنني لا أجزم هل ما سأخطه من الحروف هنا يستحق أن يسمى قصة، أم أنا مخطئ في سلكها ودرجها مع القصص، الأمر وما فيه أنني في صبيحة يوم السبت ١٣٧٧/١٠/٢١هـ ذهبت مبكراً لحلق شعر رأسي فقمت بجولة في شارع الظهيرة من مدينة الرياض أبحث عن حلاق، وأخيراً رأيت لافتة كبيرة على دكان كبير للحلاقة يسميه صاحبه صالوناً، فيممت وجهي شطره ولما وصلته وقفت على بابه وأجلت فيه بصري بفضول قد يفوق ثرثرة الحلاق. وكأنني أريد أن أشتريه، فإذا حيطانه مزينة بصور المناظر الجملية، والأزاهير المصنوعة من عمل الإنسان والصور البشرية، وغيرها، فدخلت على رجلين موجودين مصافحاً لهما بعد السلام عليكم، واخترت مقعد الجلوس فرحب الرجلان وهشا وبشا وفرحا واستبشرا يبدو أنني أول زبون يستصبحون بوجهه، أو أنهما اعتقدا أنني صيد ثمين، والتفت أحدهما إلى الآخر وطلب منه إحضار طعام الإفطار، وبعد التشاور بينهما على صنف الطعام والاتفاق عليه ذهب أحدهما إلى دكان فوال مجاور وأحضر منه الطعام، وبدأ الحلاق بإجراء عملية الحلاقة لشعر رأسي بعد أن استأذن في حلق شعري من الخلف ليصنع منه تواليت أو ليصففه على الطريقة الإفرنجية كما يقول الأديب محمد حسن عواد، وبعد آن اعتذرت عن تصفيف شعر رأسي طلبت منه حلق شعر رأسي بالموس إذا أمكن ولكنه أشار بالآلة الكهربائية، وهي تخدم مصلحته أكثر من الموس لأن الشعر يرجع كما كان بعد مدة وجيزة إذا قصر بالآلة، وفي

أثناء عملية التقصير أو الحلاقة سألت الحلاق هل هو صاحب الصالون كما يسميه فأجاب بأن المحل على حساب رجل سعودي وهو عامل في المحل. فقلت في نفسي دب الوعي التجاري أو الاقتصادي في بعض أفراد الشعب السعودي حتى لم يعودوا يأنفون من المتاجرة بالحلاقة وهاهم السعوديون يؤسسون الشركات والمصانع ومحلات الحلاقة، ولكن من الملاحظ أن المؤسسين للشركات يعطون لأنفسهم من أسهمها أكثر من نصف رأس المال ولو لم يسلموا القيمة وهو بهذا الاحتكار لا يقصدون الربح فحسب! بل يقصدون السيطرة على أعمال الشركات التي أسسوها، لضمان بقائها في أيديهم يديرونها كيف شاؤوا، ولاشك أن خضوع المسؤولين عن الشركة للعزل والمناقشة مفيد للشركة والمساهمين فيها،بل ومفيد للمنتفعين من أعمالها الإنتاجية، وحبذا لو فطن رجال الحكومة لهذا الأمر، فجعلوا للمساهم في الشركة صوتاً واحداً مهما كانت أسهمه ومن الممكن احتمال المؤسس بجعل أصوات له دون الحد الذي يجعله يسيطر على إدارة الشركة بصورة دائمة، وهذا لا يعني أن جميع مؤسسي الشركات غير نزيهين وغير مخلصين للمواطنين، فالبلاد ولله الحمد فيها رجال طيبون متفانون في خدمة أمتهم وبلادهم، كيف خطرت ببالي هذه الأشياء في صالون الحلاقة وبين يديه لعلها من امتلاك سعودي للصالون، كنت أحدث نفسي في هذه الأمور الاقتصادية، والحلاق الآخر الثرثار محضر الإفطار يجلس بعيداً في ركن من الصالون يتكلم في السياسة ويتكلم عن أخبار السياسة في الليلة الماضية بصورة خاصة، وبعد الفراغ من الحلاقة مددت يدي إلى محفظة نقودي وأخرجت منها ورقة نقدية فئة عشرة ريالات فأعطيت الحلاق ما يستحقه منها ورد الباقي عليَّ فتقدم مني الحلاق الثرثار وقال لي: ستة ريالات لأجرة المحل وأربعة

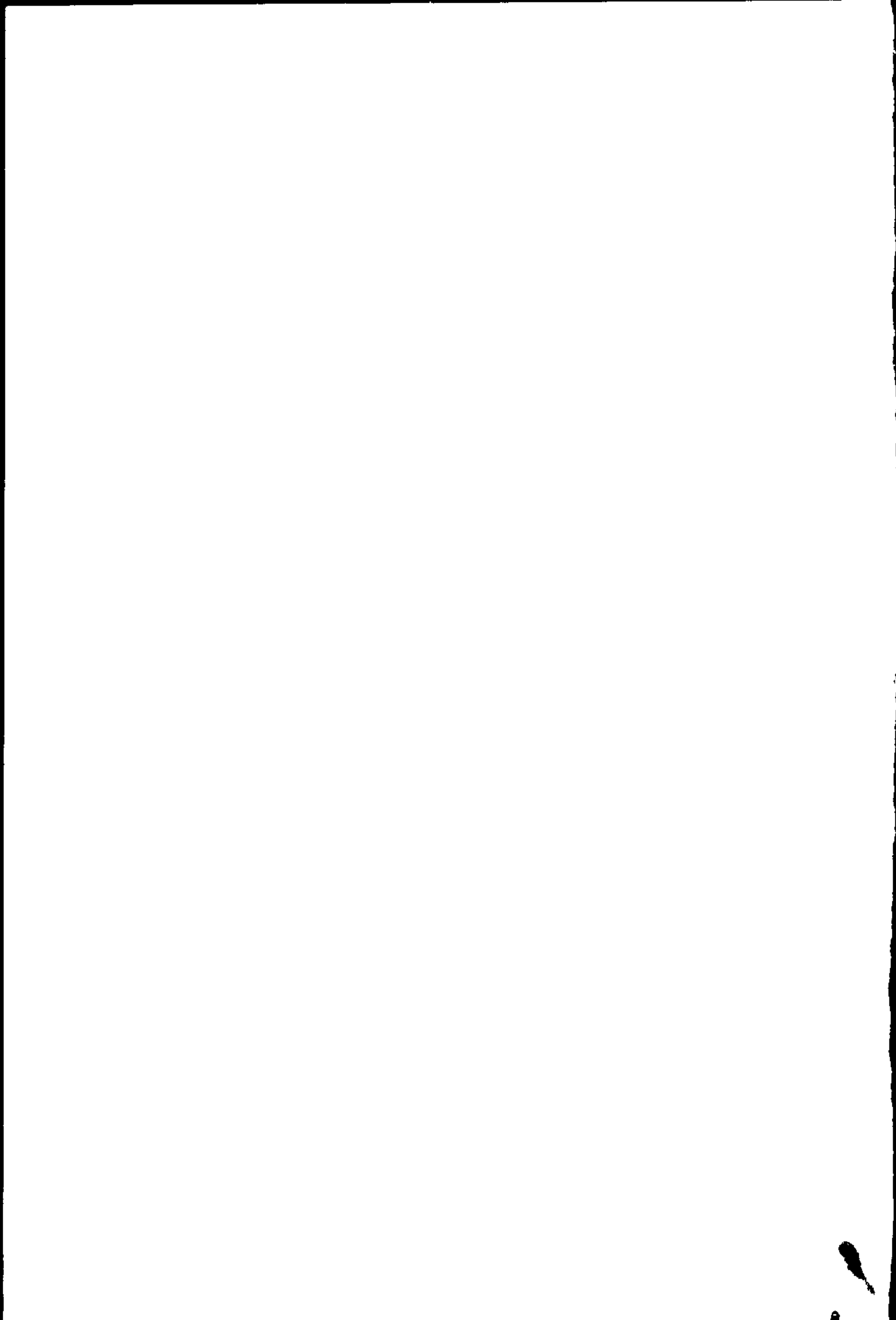
ريالات للعامل أليس كذلك ؟ فلم أرد عليه وتجاهلت كلامه وطلبت باقي العشرة من الحلاق الذي قصر شعر رأسي، فعاد الأول يلح في التمسك بالعشرة ريالات، فأدركت أنه كان ينبغي أن لا أقدم للحلاق إلا ما يستحقه، فانصرفت لأكتب عن الحلاق الثرثار قصة وإن كنت أكثر منه ثرثرة ولكنها مع نفسي، ودخلت الدار وبدأت أكتب القصة فدخل عليَّ شاب في مجلسي يحمل جريدة الأضواء فقلت ماذا في الجريدة قال : السياسي يخرف! قلت يخرف؟ كفانا الله شر التخريف والتهريف والتحريف، عسى أن لا يكون الطيب السياسي خرف وأخذت الجريدة وقرأت المقالة فإذا المقصود غير الطيب السياسي وإذا المقالة بقلم الشاب الأديب عمران بن محمد حول كتاب نظرات في الأدب المقارن فقرأتها وحمدت الله على السلامة وقلت القول الذي قيل من قبل : وعداوة الشعراء بئس المجتنى، ووجدت في الجريدة إعلاناً من أمانة العاصمة مكة المكرمة عن فتح إدارة لخدمة الموتى فقلت حسناً فعلت الأمانة فالإسلام حافظ على كرامة المسلم حياً وميتاً ولكن ليت الأمانة تفضلت ففتحت إدارة لخدمة الأحياء خاصة في موسم الحج وبعد فهل يرى القارئ أن هذا الكلام يستحق أن يسمى قصة أقول هذا للمرة الثانية أنا لا أعتقد ذلك ولكنها الرغبة في الثرثرة.



في عشتي حمار

وصلت وصحبتي إلى بلدة سامطة في مقاطعة جازان، وكان الوقت ضحى والفصل صيفاً حاراً، فاتجهنا إلى مكتب موظف مقيم له صلة بمهمتنا، وفوجئنا بغيابه، ووجدنا وكيله، وكان رجلاً من أهل عسير تعرفت عليه من قبل، وكانت أخلاقه مغايرة كل المغايرة لأخلاق أهل مقاطعة عسير، صبيان عسير، ويختلف عن أهل نجد الذين يعملون معه في عاداتهم وتقاليدهم، لم يكن بعد مقابلتنا له قد عرض علينا النزول عنده ولم نكن قد عزمنا على النزول ضيوفاً عنده أو عند غيره، فعملنا يقتضي علينا الابتعاد عنه وعن غيره خوف المؤثرات على عملنا وانصرف أحد الصحب يبحث عن سكن نستريح فيه، ثم عاد صاحبنا يطلب منا الانتقال إلى نزلنا فانتقلنا، وأنزلنا أمتعتنا من السيارة وكانت مهمتنا حكومية، وأقمنا بقية يومنا في راحة وفي استقبال الزوار من أهل البلدة الذين كانوا كلهم كراماً يصرون على زيارة منازلهم مع أن أحداً منهم لا يعرف مهمتنا، وبدأت التكهنات تنتشر عن الغرض من مجيئنا إلى هذه البلدة، خاصة وفي الرجال الذين حضرنا وإياهم موظفان كبيران معروفان لدى الناس وهما مدني وعسكري، أما وجودي فلا أعتقد أنه أثار اهتماماً كبيراً لدى أهل البلدة وتساؤلاتهم، وإن كنت أمثل جهة رسمية في القمة من الأعمال الرسمية، وأقبل الليل كئيباً ثقيلاً يخفف ثقله «آتريك» ينتشر نوره في المنزل «العشة» فيبدد قسوة الظلام ويخفف ثقل الليل ووطأته على النفوس، لم أكن أحمل معي مذياعاً ولا كتب لدي، فقد توقعت أن العمل لا يترك فرصة للاستمتاع بالمذياع أو الاستفادة من القراءة، وانصرف الموظف المدني لزيارة زملائه الموظفين المدنيين،

وانصرف العسكري لزيارة زملائه العسكريين، وعرض عليّ كل منهما قبل انصرافه أن أتجه وجهته فاعتذرت متوقعاً زيارة أحد من معارفي وزملائي، وبقيت في المنزل وإذا برجل من أهل نجد من سكان البلدة يدخل مسلماً، فأمضيت معه ثلث الليل في حديث ممتع عن سامطة وعن تهامة وعن صعوبات الرحلات وعن الحر الشديد وعن الملاريا وآثارها على الصحة، والنجاة منها، وعن الزواج وعاداته، وكان في الحديث سلوى ومتعة ولكن الحديث عن الملاريا وأشباحها وشدة الحر والشوائب الغارقة في الماء تكدر صفوه وتجعله غير صالح للإنسان، مما يثير الضيق في النفس، وأحس الصديق النجدي أنني أغالب النعاس فاستأذن بالانصراف ؛ ثم دعاني إلى الانتقال معه إلى بيته «عشته» ففيها فناء واسع بارد تتلاعب فيه النسيم مطاردة شدة حر البلدة، فشكرت كرمه واعتذرت إليه وتمددت على سرير من الخشب والخوص صنع في البلدة وصناعته منتشرة في مقاطعة جازان يحصل عليه الأغنياء والفقراء، وكنت على أثر تعب من صعوبة الطريق الذي أوقف سيارتنا بين الأحد وسامطة أكثر من مرة، وأجبرتنا الرمال على النزول من السيارة لدفعها بأيدينا وهي تغالب عجلات تراب الأرض الأسمر وليونتها، وكانت السيارة سيارة نقل، وأسلمت عيني للنوم الذي غلبني وهزم مشاغل النفس وهمومها. وفي منتصف الليل وأنا غارق في أحلام النوم استيقظت على صوت نهيق حمار كان ينهق وينخر في سهرة مع حمارة، وكان صوت نهيقه وضرب حوافره في الأرض يشق سكون الليل! ونظرت إلى ساعتي فإذا هي قد تجاوزت السادسة غروبي فجلست وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم وقلت صدق الله العظيم : ﴿إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير﴾ .





قفة خالية !

جمع مجلس في مدينة الرياض بين جماعة من الشيوخ والشباب، فأراد أحد الشيوخ أن يحد من صورة تباهي الشباب بتعليمهم وشهاداتهم فأخذ بأطراف الحديث عن قسوة الحياة في الماضي قبل أربعين عاماً، والشيوخ الباقون والشباب الموجودون منصتون. قال الشيخ أبوعيسى: شب زيد في مدينة شقراء يكتنف حياته الفراغ والضياع فلا مدرسة منتظمة الدروس ولا عمل يحفل بالعطاء، والجوع يقف في طريقه يكشر بأنياب الفناء ! وأدرك زيد أن والده بحاجة إلى من يعينه على نفقة الأسرة، فطلب من أبيه أن يحضر له حماراً يذهب عليه إلى الصحراء ليحتطب ويبيع الحطب في سوق شقراء ويقدم ثمنه لأبيه.

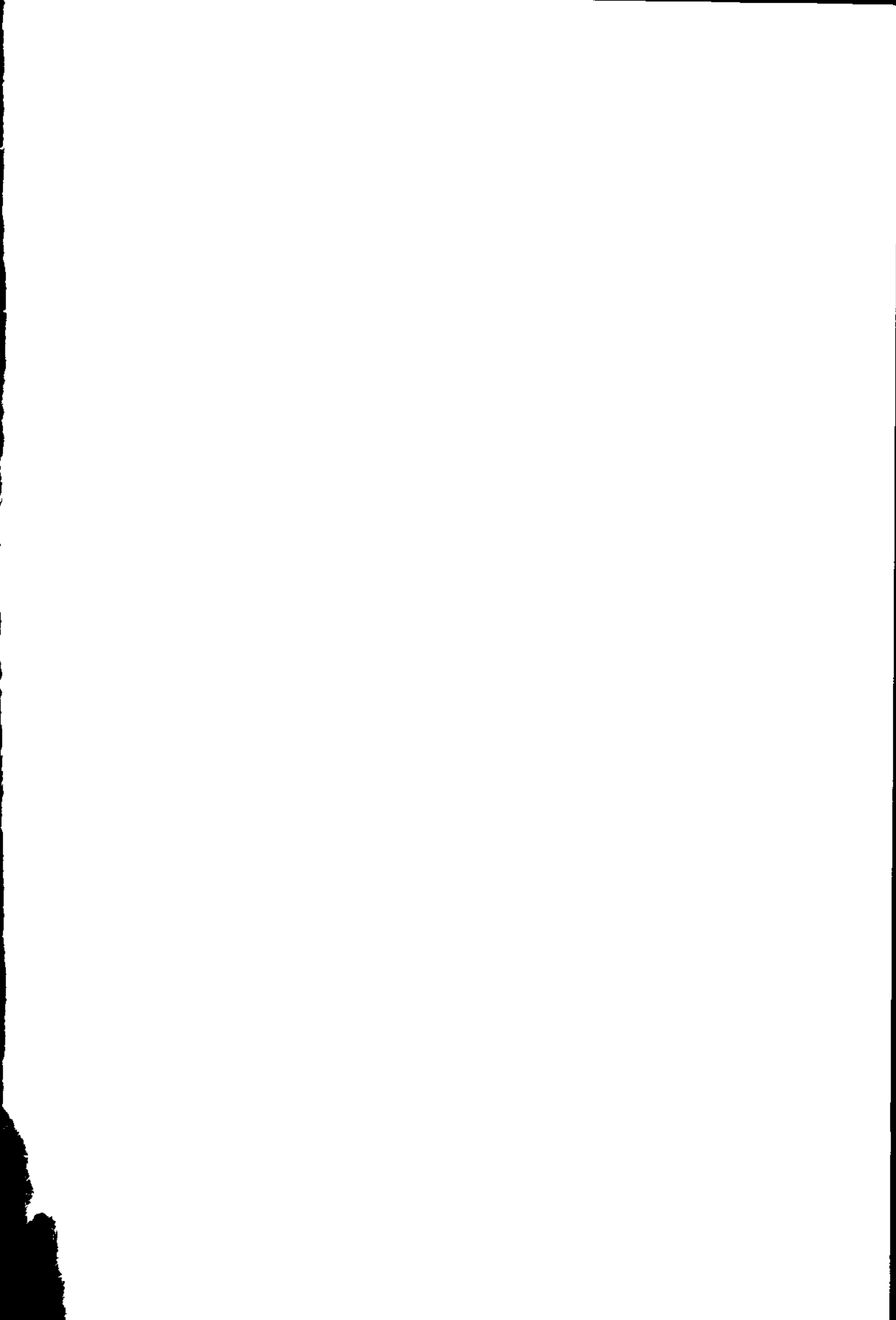
وفي فجر يوم أراد زيد أن يلحق بالشباب على حماره، فطلب من والدته قفة التمر زاداً لسفره القصير فأخبرته أن القفة خالية من التمر وأنه ليس في الدار تمر ! فأخذ القفة خالية من التمر وركب حماره واتجه إلى خاله وطرق بابه فرد عليه فطلب منه زيد أن يذهب معه إلى دكانه ليبيع عليه ثلث وزنةتمر «بثمنه» فذهب معه خاله ووزن له التمر ووضعه في القفة، ولكن الخال ظل ممسكاً برقبة القفة وقبل أن يقدمها لابن أخته طالبه بالثمن فقال زيد : يا خالي إذا بعت الحطب أعطيك ثمن التمر فأصر الخال على أنه لا يمكن أن يأخذ التمر إلا بعد دفع ثمنه ! وهنا تحرك الدم في وجه زيد، وثار غاضباً صارخاً في وجه خاله قائلاً : إذا لم تثق بي أنت يا خال فمن يثق بي ؟! وأهوى على ذراع خاله الممسكة بالقفة وحطمها بعصا الحمار القصيرة الغليظة ! فتخاذلت

اليد المسكة بالقفة بعد كسر عضدها، وانتزع زيد القفة من بين يدي خاله وركب حماره ليلحق بالركب، ولكنه سمع صوت المؤذن لصلاة الصبح «الله أكبر» فخطرت على باله رغبة التخلص مما وقع فيه، فغير اتجاه حماره وقصد بيت أمير شقراء البواردي، وطرق بابه ولعله كان حجرف البواردي، فرد عليه وبعد السلام المشوب بالخوف والرجاء والألم قال زيد : يا حجرف يا الأمير : أنا كسرت يد خالي لأنه امتنع أن يبيعني ثلث وزنة تمر أقتات بها إلا بعد دفع ثمنها مقدماً؟! قوت بطني بخل به خالي عليّ إلا بثمنه فماذا أفعل؟!! أ أسرق؟ أ أنهب الناس؟! وأنا الآن أخشى منكم أن تجلدوني! فأنا مسافر من نجد إلى أية بلد فلا تبحثوا عني! وكان يتحدث والباب مغلق فلم يشأ حجرف أن يتعجل فتح بابه حتى يطمئن إلى من خلفه، وكان من خلفه شاباً غاضباً، فرد عليه حجرف : صارت جنايتك على خالك! وخرج زيد من شقراء هائماً على وجهه لا يعرف الطريق وتذكر أن القوافل تعود إلى شقراء من الأحساء من الباب الجنوبي فاتجه إليه وخرج منه متجهاً صوب الجنوب ((ثرمداء)) وترك حماره فيها ووجد جماعة مسافرين إلى الأحساء فانضم إليهم ووصل معهم إلى الأحساء، ولكن الشاب زيداً كان مصمماً على الوصول إلى قطر فاتجه إليها ووصل إلى الدوحة واشتغل بالتجارة حتى صار من كبار التجار، ووصل إلى الأحساء في تجارة له فيها عقود لؤلؤ ونزل ضيفاً على تاجر من أهل شقراء يقيم في الأحساء فطلب من التاجر أن يعطيه مفتاح خزانة يضع فيها ماله فأعطاه غرفة حصينة وسلمه مفتاحها ومفتاح خزانة في داخلها فوضع زيد اللؤلؤ في الخزانة وأغلقها وأغلق عليها باب الغرفة، ولما جاء الليل تلفت زيد يسائل نفسه يمكن لو دخل عدد من اللصوص إلى الغرفة أن لا يستطيعوا نقل صندوق المال، فما الحيلة؟! هل أنام

عنده! لكن حرارة الجو لا تشجع على النوم داخل الغرفة، ولمعت في ذهن الشاب زيد فكرة، هذه عيارات ميزان التاجر آخذها وأدخلها في الصندوق حتى لا يستطيع اللصوص حمله، ونفذ فكرته فحمل عيارات الميزان في الليل ووضعها داخل الخزانة، ونام مرتاح البال. وفي الصباح جاء رجال التاجر ليشتغلوا في وزن البضاعة لديهم فلم يجدوا العيارات ولم يشكوا في أنها قد سرقت، ووقفوا محتارين وإذا بزيد يصل إليهم فيسألهم عن دهشتهم وحيرتهم، فقالوا له العيارات سرقت ما وجدناها هذا الصباح فرد عليهم بقوله: العيارات عندي واتجه إلى الغرفة فلحقوا به وفتح باب الغرفة فلم يروا فيها شيئاً ففتح الخزانة ورمى بها في الأرض فنقلوها وهم يضحكون، وسألوه لماذا وضع الحديد والحجارة في الخزانة؟ فرد عليهم: لأجل أن يثقل على اللصوص حملها، فرد عليه أحد الرجال : إن أمير الأحساء عبد الله بن جلوي، وهي خالية من اللصوص. فقال زيد المهم أن أطمئن وأنام مرتاح البال وقد فعلت، وباع الشاب ماله وعاد إلى قطر وبقي فيها يشتغل بالتجارة حتى صار من كبار التجار، ورجع إلى شقراء فوجد زوجته قد طلقها أبوه بناء على رغبتها وتزوجت برجل غيره، فلبث بين أهله مدة ثم عاد إلى قطر ولم يعد إلى نجد، فسافر إليه أبوه فأكرمه وقدم له مبلغاً كبيراً من المال. وعاد الأب إلى شقراء ولكنه كان مريضاً فارتاح في الأحساء مدة من الزمن وطلب لنفسه العلاج من المرض ثم استأجر ناقة بعشرة ريالات توصله من الأحساء إلى شقراء وأحضر إلى مضرب خيمة الجمال على حمار فقال جمال آخر ما هذا الرجل المريض الذي جيئ به على حمار فقال الجمال أبوعيسى: هذا بوزيد أخذته بعشرة ريالات أوصله إلى شقراء وهو مناصفة بيني وبينك اتفقا على المشاركة فيه يركبه أحدهما على ناقة له يوماً ويركبه الآخر

على ناقة له اليوم الثاني، وبدأت الرحلة وفي الطريق لاحظ أبوزيد أنه أركب ناقة غير الناقة التي حملته من الأحساء فقال : أريد الناقة الأولى. فقال أبوعيسى : اليوم ركوبك على ناقة خويي فهو شريك فيك. فقال أبوزيد هل أنا ضحية تتشاركون فيَّ! والله لا ركبتها ! وأناخ الراحلة، وظل على ظهرها فلم يكن يستطيع التحول عنها لمرضه، ووقف الجمالون حوله، وهنا ألح عليه بتقديم ناقة أبي عيسى أو العودة به إلى الأحساء وفرح أبوعيسى حيث استقل بأجرة الرجل ووثق من مفارقة الجمال له في طريقه، حيث تخلى عن المشاركة الجمال الشريك المرافق، وقدمت لأبي زيد الناقة الأولى وصار من نصيب أبي عيسى وتخلى عنه الثاني راضياً مختاراً ولا خيار له وإنما كان الخيار لأبي زيد، وركب أبوزيد الناقة التي أرادها وصار مسروراً، وكان كريماً يقدم القهوة لصانعها كلما شبت النار، ولما اقتربوا من شقراء وكان ولده زيد قد أعطاه بساطاً ملوناً بألوان زاهية، وأعطاه حلة جميلة، أمر أبوزيد بفرش البساط على ظهر الناقة وجنبيها ولبس أبوزيد ملابسه الجديدة الجميلة الزاهية، ووجد أصدقاءه من أهل شقراء يستقبلونه قرب مدينتهم وكانوا متشوقين لرؤيته، وسكت الشيخ المتحدث أبوعيسى وأخذ يرشف ما في قدح القهوة الصغير فوجدها شاب فرصة ليسأل الشيخ لماذا يحدث بمثل هذا الحديث فرد الشيخ أبوعيسى أريد تسليتهم من جهة ومن وجه آخر أريد منهم أن يحمدوا الله على نعمة يسر العيش ورغده فقد كان الناس في الماضي يجوعون، ويقرون ويجهدون في سبيل العيش والكساء فلا يتيسر لهم العيش الزهيد إلا بشق الأنفس فعقب عليه شيخ من الحاضرين بقوله لا يا عم : كان العيش ميسوراً للعاملين، كان في إمكانك أن تزرع وتغرس النخل والفواك فتحصل على أصناف الثمار الوافرة، تأكل منها وتبيع الزائد عن حاجتك

فتشتري الملابس لك ولأهلك وتشتري اللحم والقهوة وما تحتاجه من متاع في حياتك وقاطعه شيخ آخر بقوله : أنا جئت من الكويت ومعي عشرة آلاف ريال فرنسي بعت بها سلاحاً على أمير الكويت سالم الصباح فقاطعه شيخ آخر وقال الحروب التي كانت تأكل الأخضر واليابس والفتن التي كانت تجتاح البلاد هل كانت تعطي الإنسان في نجد وقتاً يمكنه فيه أن يزرع ويغرس قال الشيخ المتحدث الأول : الحياة كانت قاسية وكان المتحدث أباعيسى واستمر يقول : فهل تريدون دليلاً على قسوة الحياة أصدق مما نريه لكم، اسألوا من عاش الحياة القاسية فعانى تعاستها وقسوتها وشقاءها واصطلى بآلامها وبهذه الكلمات ختم أبوعيسى كلامه ونهض من مجلسه وتفرق الاجتماع.



كساب

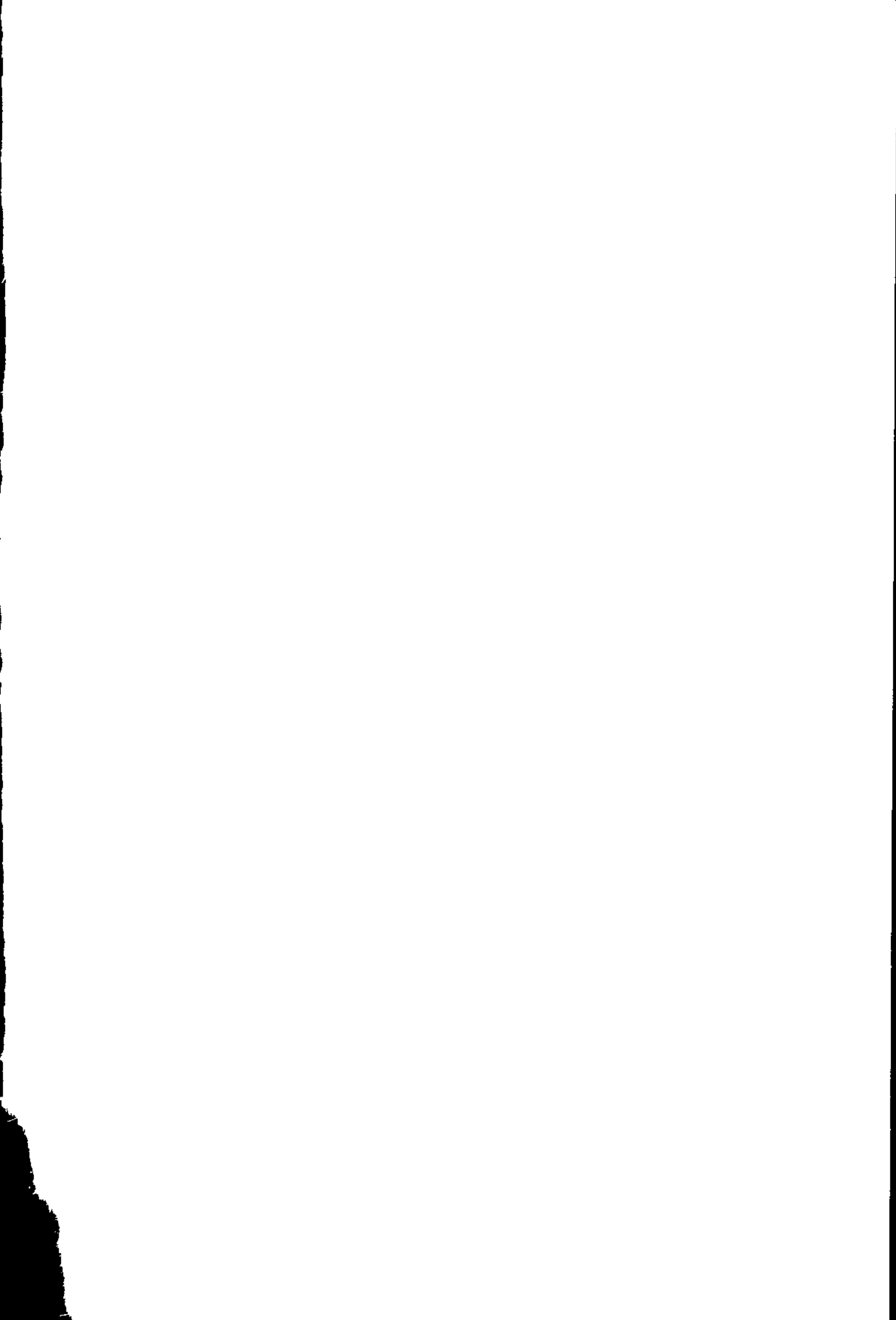
في عام ١٣٢٠هـ عادت قوافل مواكب حجاج العراق من مكة وحطت رحالها في بريدة، وكان بين هؤلاء الحجاج رجل مريض، فتركه رفاقه في بريدة، واستأنفوا رحلة سفرهم عائدين إلى العراق، وبقى الرجل في بريدة في منزل استؤجر له يعاني آلام المرض والغربة الذي يخففه عنه عطف الأهالي، واستئناسه بهم، ومعالجة جيرانه لمرضه بأدوية مصنوعة في بريدة مبنية الاستفادة منها على التجارب، وصار أحد جيرانه يقدم له حليب ناقة في الصباح والمساء وينصحه بشربه كي يقوى جسمه ؛ فيغلب نشاطه المرض ويشفى بإذن الله، ومضت شهور والرجل مريض، ثم أذن الله له بالشفاء وقوي جسمه ونشط وصار يحضر إلى المسجد فيصلي جماعة مع الناس، وخرج إلى الأسواق واختلط بالناس، ودخل معترك الحياة في مدينة بريدة فصار يشتغل بالتجارة ويكسب ما يقوم بمصرفه اليومي، وأحب جيرانه وتعلق بهم، ورغب الاستيطان في بريدة فتزوج امرأة كبيرة السن من عائلة محترمة تجاور مسكنه. وكان أهل المرأة يظنون أنها لا تحمل لتقدم سنها، وهم غير راغبين بمصاهرة هذا الرجل الذي يعرفون أنه عراقي ؛ ولكنهم لا يعلمون حقيقة نسبه، إلا أن المرأة رزقت منه مولوداً ذكراً أسمته كساباً، وكان الرجل العراقي غنياً في بلاده ومعه مبلغ كبير من المال كان يستعين به على أمور معيشته في تحريكه بالتجارة، وكان إذا عاد إلى بيته يحدث زوجته عن كسبه وربحه في السوق، ومن حديثه عن كسبه [illegible]توحت الأم تسمية ولدها - كساب - وعاد الرجل العراقي الحاج إلى [illegible]ده وترك زوجته وطفله، وانقطعت الصلة بينه وبين زوجته وولده، وكـ[illegible]

الولد الذي نشأ عند أخواله فتولوا تعليمه وتوجيهه للعمل في التجارة وفي عام ١٣٤٠هـ انحدر الولد من بريدة إلى الزبير مع جماعة من رجال بريدة وفتح متجراً في الزبير وحصل على ربح وفير، أجل إنه كساب في اسمه وعمله، وصار الرجل الابن يسأل عن والده فدل على مكانه فأخذ لوالده وإخوانه هدايا من الزبير واتجه إلى داخل العراق يسأل عن أبيه فدل عليه : فوجده وسلم عليه وعرفه بنفسه فرحب به الأب، وذهب به إلى أهله في داره، وأحضر أقاربه وعرفهم به وعرفه بهم، فسلموا عليه وحيوه، واستأنسوا وأكرموه، وبعد أيام خلا الأب بابنه وقال له يا بني أنت ولدي وأنا رجل تقدمت بي السن، وأنت رجل تعرف الأمور أنا مذهبي شيعي، وأهل أمك حينما زوجوني لا يعلمون أنني شيعي، حيث كنت أعمل مثلما كانوا يعملون في عباداتهم وأمور الدين أقلدهم، ولا أخالفهم، وما انقطعت عنك وعن أمك إلا لهذا السبب والآن إن كنت ترغب مذهب أمك وأهل بلدك فلا صلاح لك في البقاء بيننا، وإن تتبع مذهبي فأنا أبوك وأرى إقامتك عندنا، ونحن ولله الحمد كما ترى في خير من الدنيا، وأسرتنا كما رأيتها تعجبك، قال الابن كساب : أنا مذهبي مذهب أهل بلدي، وأنا رجل سني وهنا استأذن الولد من أبيه وانصرف بعد أن أذن له أبوه بالعودة، وبعد أن ودعه أبوه قدم له هبة من المال، وعاد الابن إلى الزبير وصفى تجارته واتجه إلى بريدة يحن إلى أمه وأهله الذين ولد ونشأ وتربى بينهم تربية صالحة اجتذبته إليهم، وبعد سنين تلقى برقية عن وفاة والده، وطلب حضوره في الحال فتوجه إلى العراق مرة أخرى وعزى أقاربه بوفاة والده وأخذ نصيبه من الميراث في مال أبيه، وعاد مرة أخرى إلى بريدة التي أحبها فهي بلده ومذهب أهلها مذهبه، وكون أسرة صارت من خيار الأسر، وهكذا نرى في قصة هذا الشاب الرجل رسوخاً في العقيدة الدينية في عقل الإنسان و

الصعب تحوله عن مذهبه خاصة إذا كان يرى في العقيدة التي يدعى إليها أموراً تأباها فطرته وتربيته وعقله، والأبوان لهما تأثير كبير في توجيه الولد وجهة الخير أو وجهة الشر ((لكل وجهةٌ هو موليها فاستبقوا الخيرات)) وبعد فإن ما كتبته هنا له نصيب من الخيال وله نصيب من الصحة والواقع.

وأسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة وأن يهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى طريق الصواب في عباداتهم وتعاملهم مع خالقهم ومع الناس.

٤/١/١٣٩١هـ.



أبوه في الثلاجة ؟!

مع إطلالة الشمس على الأرض الرحبة، والقصور الشاهقة والعمارات السامقة في مدينة الرياض، ترسل خيوط أشعتها الذهبية الدافئة في صباح نهار صيف شديد الحرارة تخفف شدتها ريح رخية تحرك أشجار الحدائق في الطرق والقصور، تسابق أشعة الشمس إلى الكائنات الحية وتتلقاها فتحيل حرارتها إلى الجو مرتدة فتتلاشى حرارتها، خرج الحارث من بيته متجهاً إلى السوق القريب من بيته، جنوب غربي الرياض ليحضر طعام إفطار أسرته صباح هذا اليوم الجديد، وكان يحمل في يده اليمنى آنية لحساء الفول ومعه قطعة قماش يلف بها أقراص الخبز في العادة. ووصل الرجل إلى الشارع العام رقم ثلاثمائة وهو يسير بتؤدة وحذر يلتفت يميناً وشمالاً كلما سمع جلبة سيارة وهدير محرك سيارة تمر من حوله كالبرق النجدي الخاطف، استمر الرجل في سيره مفضلاً المشي على رصيف الشارع العام، ولم يشغله ارتفاع الأصوات المنادية على البضائع عن نفسه، فمازال الرجل حذراً متيقظاً وهو يسير خائفاً من السيارات أن تفترسه تحت عجلاتها فتذهب حياته ضحية لسائق متهور، وبينما كان الرجل يمشي على الرصيف المبلط المخصص للمشاة والذي تقف فيه الأشجار متباعدة كأنها تؤدي مهمة رجال الشرطة في مراقبة الطريق، ويعتقد الرجل أنه في مأمن من أخطار السيارات وتهور سائقيها وهم يمرون سياراتهم عبر الشارع، أقبلت سيارتان مسرعتين إحداهما متجهة شمالاً من الشارع الفرعي رقم مائتين وخمسين الممتد من الغرب وكلاهما

تحملان سمة سيارات الأجرة، وكلا سائقيها يهم أن يسبق بسيارته السيارة الأخرى في الشارع العام محاولاً اجتذاب الركاب إليه قبل الآخر وكانت الكارثة! لقد اقتربتا من بعضهما ثم تعانقتا فاصطدمتا صدمة عنيفة، خرجت بالسيارة الداخلة من الطريق الفرعي عن الشارع العام إلى رصيف الشارع حيث دفعتها بقوة فصدمت ذلك الرجل وهو يقف متلفتاً حوله ينظر ما حدث، ثم انكفأت السيارتان مبتعدتين عن بعضهما، وظلتا مطروحتين على الأرض بعد أن قذفت إحداهما سائقها بعيداً عنها، وعالج الآخر باب سيارته المتهشم وفتحه وخرج منها. ونفض الطريح التراب عن جسمه، ووقف مذهولاً فجاء إليه الآخر مقدماً بين يديه السباب والشتائم والاتهامات، ثم جر أحدهما الآخر وقال له : امش ننظر حالة الرجل الضحية، فاقتربا منه وقلباه فإذا هو جثة لا حركة فيها ولا روح قد فارقته الحياة، وتجمع الناس حول الضحية وآثار الحزن والسخط بادية على وجوههم والتف الناس على السائقين يؤنبونهما ويتهمونهما بالعبث والاستهتار بأرواح المواطنين، ولم يشغل سخط الناس السائقين عن الضحية فالتفت أحدهما إلى الآخر وقال : أتعرف الرجل القتيل؟ فأجابه بالنفي، وقال مافائدة معرفته؟! الدولة هي التي تعرفه، واتفقا على حمله إلى سيارة واقفه بقربهما وطلبا من سائقها أن يوصله إلى مستشفى الحياة، فوضع بالسيارة وركب معه السائقان القاتلان، أجل إنهما قاتلان إن لم يكن أحدهما القاتل، وتطوع أحد المتجمعين حول الضحية من المارة وركب إلى جوار الضحية في المقعد الخلفي، وصلت السيارة عند باب المستشفى فنزل السائقان وأحضرا نقالة ليحمل عليها الرجل الضحية إلى داخل المستشفى، في قسم الإسعاف، واستقبل الضحية من الأطباء الذين سأ[illegible]

أحدهم عن اسم الضحية، ومكان عائلته، فلم يجدوا جواباً كافياً، ترك السائقان الضحية بالمستشفى وسلما نفسيهما إلى مركز الشرطة بالمستشفى، وفي غرفة ضابط المخفر ارتفع صوت أحدهما على الآخر يتهمه بالرعونة وسوء القيادة وهنا تدخل الضابط وطلب منهما السكوت أما الرجل المتطوع الذي ركب مع الضحية فقد اطمأن إلى تبليغ الحادث للشرطة ثم انصرف. طلب الضابط من السائقين تسجيل الحادثة بالتفصيل دون زيادة أو نقص، وطلب منهما أن يخافا ربهما ويقولا الحقيقة، فالضابط فهم من كلامهما أن الضحية مات، وسجلت الحادثة في مركز شرطة مستشفى الحياة، ثم أحيل السائقان إلى قسم مرور الرياض، أما الأطباء فأعدوا تقريراً عن وفاته، وأحالوه مع التقرير إلى الطب الشرعي، وأدخل غرفة الطب الشرعي فأجروا له فحوصاً كاملة مستوفية توضح أوصاف الرجل ووفاته وتاريخ وفاته وأسبابها، ولما لم يكن اسم الرجل معروفاً لديهم فقد وضعوه في ثلاجة قد أعدت في المستشفى لمثل هذه الحالة الغير نادرة في حياة الناس التي صارت الحوادث المرورية فيها تضاهي حوادث قتلى الحروب! ويدأ ضابط المرور يحقق مع السائقين، ولما بدأ الضابط بالتحقيق قال السائق يا أخي أنا ما أكلت فطوراً، فنهره الضابط وقال له : أتعتقد أن أولاد الضحية قد أكلوا فطورهم هذا الصباح! واستمر الضابط في التحقيق مع السائق وانتهى منه، فاستدعى الآخر وحقق معه، وتكشف لضابط المرور بطريقته التي مارسها من قبل وبما لديه من أوراق وصلته عن طريق رجال النجدة الذين وصلوا إلى مكان الحادث فأخذوا معلومات من المارة الذين وجدوهم متجمعين حول مكان الحادث الأليم، تكشفت للضابط معرفة الجاني، إنه صاحب السيارة الحمراء الفورد موديل ٦٩ فعليه تقع

مسؤولية قتل الرجل بالدرجة الأولى ويتحمل صاحب السيارة ((الفورد م ٧٠)) مسؤولية المرتبة الثانية من قتل الرجل، فسبعون في المائة على الأول وثلاثون في المائة من دية الرجل والجناية عليه تقع على الثاني، انتظرت أسرة الحارث رئيسها ومعه طعام الإفطار، والذي تأخر عن عادته فصار أولاده الخمسة يترقبون وصوله عند الباب، وبدأ الأولاد يدخلون إلى الدار ويخرجون، ومضت ساعة وأخرى وثالثة فازداد قلق الأطفال، وانتهت فترة طعام الإفطار وبدأ إعداد طعام الغداء دون حضور الحارث الذي لم يكن قد أحضر ما يلزم لإعداد وجبة الغداء قبل وقوع الحادث الذي تعرضت له حياته، وأذن المؤذن لصلاة الظهر فاتجه الأطفال إلى أمهم التي كانت مشغولة بتنظيف البيت وترتيبه وخياطة ملابس لأولادها ظانة أن الأب انشغل عن طعام الإفطار بشأن من شؤون حياته وأنهم مدعوون لطعام الغداء عند أحد من أقاربهم ولعله نسي أن يخبرها بالدعوة واقترب منها الأطفال يسألونها عن «بابا» فقالت لهم : بابا بالسوق، ثم فتحت خزانتها وأخذت منها قبضة من حبات الحلوى وزعتها على أطفالها الصغار، وقدمت لهم أقراص البسكويت الذي صنعته قبل أيام، واتجهت الأم تستعد لأداء صلاة الظهر، وبعد الصلاة اجتمعت مع أولادها في المجلس القريب من الباب، ومضت ساعة بعد صلاة المرأة الظهر وتبددت دقائق من الساعة الثانية، فبدأت الشكوك عن غياب الحارث تتسرب إلى نفوس الأسرة، وكانت أم الأولاد أقواهم إحساساً بأثر غياب زوجها الساعات الثقيلة. هذا الزوج الذي لم يكن من عادته التأخر عن الحضور إلى البيت إذا خرج إلى السوق لشراء شيء من لوازم الأسرة وبيتها، ولكن الشكوك بدأت طريقها إلى روح وعقل المرأة أم البنين، ولكنها تغالب آثار الشكوك وتحاول إبعاد الحزن عن بنيها الصغا

الذين لم يعرفوا شيئاً عن مصير والدهم بعد، ولكنه الإحساس بأسباب تأخر أبيهم عن العودة إلى الدار ورغبتهم لقربه منهم، وأخذت الأم تلاطف أطفالها وتلاعبهم محاولة تسليتهم، ولكن طال غياب أبي البنين فاستدعت المرأة جارها وأخبرته أن زوجها خرج لشراء طعام الإفطار مع شروق الشمس وأنه لم يعد، وقد أكل الناس الآن طعام الغداء وأخلدوا إلى الراحة والنوم، فأسرع الجار إلى مستشفى الحياة، وسأل موظفيه عن الحوادث هذا اليوم من السيارات فأخبروه أنه جاءهم في الصباح رجل ميت يحمله سائقان وكانت قفزت إليه سيارة أحدهما من الشارع وهو يسير على الرصيف وصدمته، وهو الآن في قسم الطب الشرعي، فاتجه إلى قسم الطب الشرعي فقادوه إلى الثلاجة يجر خطاه الثقيلة من هول المفاجأة، ولما فتحت الثلاجة وشاهد الرجل الضحية عرف أنه جاره، وعاد إلى بيت الضحية يحمل الحزن والألم، ووصل إلى بيت جاره فوجد الأسرة والجيران في انتظار وكان أسرعهم إليه أكبر أولاد الرجل الضحية الفقيد فأخذ يسأله عن أبيه والرجل يتردد في إجابته ويكتم النبأ، وأمام إلحاح الصبي قال له : أبوك في الثلاجة، فأسرع الصبي إلى أمه مرتبكاً من إجابة جاره عن أبيه، ولكن الأم كانت قد سمعت الكلمات الحزينة تختنق في فم الرجل وتنتحر على لسانه، وكانت تغطي جسمها بعباءتها وتتلفف عن جيرانها الرجال بملابسها، وقعد الرجل مع الأسرة والجيران ولما سمع الزوجة تغالب دموعها أخبرهم عن الحادث، وغلبته دموعه فأجهش في البكاء فبكى الذين حوله ورددت الدار صدى البكاء والحزن والألم، وصار المجتمعون يعزي بعضهم بعضاً ويواسي بعضهم بعضاً عما حل بهم من أسى ومصيبة، وخيم الحزن على رؤوسهم وتلفتت وجوههم بظلمة الحزن من المصيبة، بالأب الطيب والجار الشريف،

وترحموا على فقيدهم الحارث، ومدت الأم يدها تمسح دمعة حارة انحدرت من عينها على خدها وقالت : كنت أخاف على أطفالي من السيارات، ولم أكن في يوم من الأيام أخاف على أب العيال! «إنا لله وإنا إليه راجعون». وطلبت من جاره الذي نعى إليها زوجها أن يخبر أقاربه بوفاته، وأن يسعوا إلى تجهيزه والصلاة عليه، وعندما هم الجار بالخروج من المنزل إذا بعمدة الحارة يقرع الباب المفتوح فأذن له بالدخول، فهمس في أذن الذي أذن له بالدخول بنبأ الفاجعة، موت صاحب الدار في حادث سيارة، نعم حادث سيارة، ويخبر أن السائقين الذين تسببا في الحادث مسجونان تحت أمركم يا أولياء الفقيد، رجل طيب من خيار سكان الحارة هكذا قال العمدة؟! وتفرق الجيران يحملون أوجاع المصيبة في فقد جارهم إلى أسرهم وذهب الناعي يخبر أقارب الميت بوفاته، فأخبرهم واحداً واحدا في بيوتهم التي كان يعرف أمكنتها، وتجمع أقارب الرجل في بيت أكبرهم سناً واتجهوا إلى المستشفى، ونقلوه إلى بيت كبيرهم وجهز وصلي عليه بعد صلاة المغرب، ودفنوه في المقبرة، ثم اتجه أقاربه وأصدقاؤه وجيرانه إلى بيته وواسوا أبناءه وزوجته وترحموا عليه وتقبلوا فيه التعازي، ووعدوا أولاده خيراً ثم تفرقوا، وحضرت نساء الحي إلى زوجه يعزينها ويؤاسينها ويذكرن الجار بالخير، وبقيت بعض النسوة بجوار صاحبة الدار الحزينة يخدمنها ويسلينها وهي غير سالية، إنها تنظر إلى الأطفال والصبية فتقول في نفسها متى يكبرون! ومتى يتحملون مسؤولية البيت؟ وتسمع صويحباتها ما تقول، وكان وقوع الحادث في صباح يوم ١٣٩٠/٦/١هـ وفي الغد أي في يوم ١٣٩٠/٦/٢هـ اتفق أقارب السائقين على الذهاب إلى أهل الفقيد لعرض الدية عليهم أو أخذ تنازل منهم عن حقهم في الدية، فذهبوا إلى المرأة وعزوها مـ

وراء الباب بزوجها وأخبروها أن السائقين في السجن وأن أهلهما يبكون عليهما وأنهم متأسفون لما حصل لزوجها ولأسرته بفقده على أيديهما، وطلبوا منها أن تتنازل عن الدية صدقة لله على زوجها، أو تخبرهم برغبتها على أخذ الدية فقالت : أبوعبد الرحمن ما يعوض عنه دية ستة عشر ألف ريال؟! إنها لا تصرف علينا سنتين، ولكن الخلف على الله بأبي عبد الرحمن أنا متنازلة، أما الأولاد الصغار وكلهم صغار فسوف أبحث موضوع حقهم في الدية مع أقاربهم بعد يومين أو ثلاثة أيام، بعد ما تهون المصيبة، وما أظن المصيبة تهون.

فانصرف أقارب السائقين شاكرين للمرأة العربية الكريمة نبلها ومروءتها، داعين لزوجها بالمغفرة ولها بحسن الصبر والعاقبة. وفي يوم ١٣٩٠/٦/٤هـ بحثت المرأة مع أهلها عن تنازل أولادها وتنازلها عن دية زوجها فقالوا الاختيار في ذلك لك ولن تحتاجي شيئاً من الدنيا إن شاء الله ونحن موجودون. وبحثت مع أقارب زوجها موضوع التنازل عن حق أولادها في دية أبيهم، وأخبرتهم أنها هي متنازلة عن حقها في الدية فتركوا الأمر لها! فقالت أما وقد تركتم الأمر لي فإنني أختار التنازل عن حق أولادي في دية أبيهم وعوضهم على الله. وفي يوم ١٣٩٠/٦/٥هـ زار بيت الفقيد أقارب ذينك السائقين ودخلوا في مكان قريب من مكان المرأة حيث مرضت ولزمت فراشها من آثار الحزن والألم وضعف الغذاء حيث لم تأكل ما يكفي لبعث طاقة حيوية في جسمها، مع أن أقاربها وأقارب الزوج صاروا يقدمون لها ولأولادها الطعام الجاهز يومياً، وكذلك الجيران يقومون بمثل ما يقوم به الأقارب من تقديم الطعام لأهل الميت، إنها حزينة، وشعرت بوجودهم فطلبوا منها الإفصاح عن رغبتها في أمر حق [أو]لادها في دية أبيهم، فكلمتهم من خلف الباب وأخبرتهم بصوت ضعيف

أنها متنازلة عن نفسها ونيابة عن أولادها عن حقهم في دية أبيهم، وأنها قد أخذت رأي أقارب الأولاد في التنازل فوافقوا عليه، فشكروها ودعوا لها بخير. ثم ذهب أحدهم مسرعاً وأحضر أحد أقارب الزوج الفقيد وأحضر كاتباً يكتب إقرارها بالتنازل فأملت إقرارها على الكاتب بالتنازل عن حقها وعن حق أولادها في دية أبيهم وأنها قد استشارت أقارب الأولاد ففوضوها في هذا الأمر، وأشهدت على تنازلها ودعى لها من حضر ولأولادها بخير، وترحموا على الزوج الفقيد، وهنا ضج البيت بالبكاء من جديد، فبكى أقارب السائقين فيمن بكى، وأخذ أحد أقارب سائق من الجانبين ورقة التنازل وطواها وقال أنا أقدمها لإمارة الرياض، وانصرف إلى قصر الإمارة يحمل ورقة الخلاص من تحمل الدية واستأذن على صاحب السمو أمير الرياض وقدم له ورقة التنازل، ولما قرأها الأمير : قال نحيلها إلى محكمة الرياض ولابد من قبولها من قبل المحكمة فنحن ليس لدينا إلا الشرع. وأحيلت الورقة مع كامل المعاملة إلى قاضي الجنايات، إنها صورة لمأساة إنسانية تتكرر كل يوم ويزيد في سرعة تكرارها تصاعد عدد السيارات في مدينة الرياض، ولها صور مماثلة في غير مدينة الرياض، فمتى يرعوي الناس الذين يقودون سياراتهم لملاحقة المواطنين الأبرياء وانتزاع أرواحهم وكأنهم في صراع مع وجود حياة الآخرين.

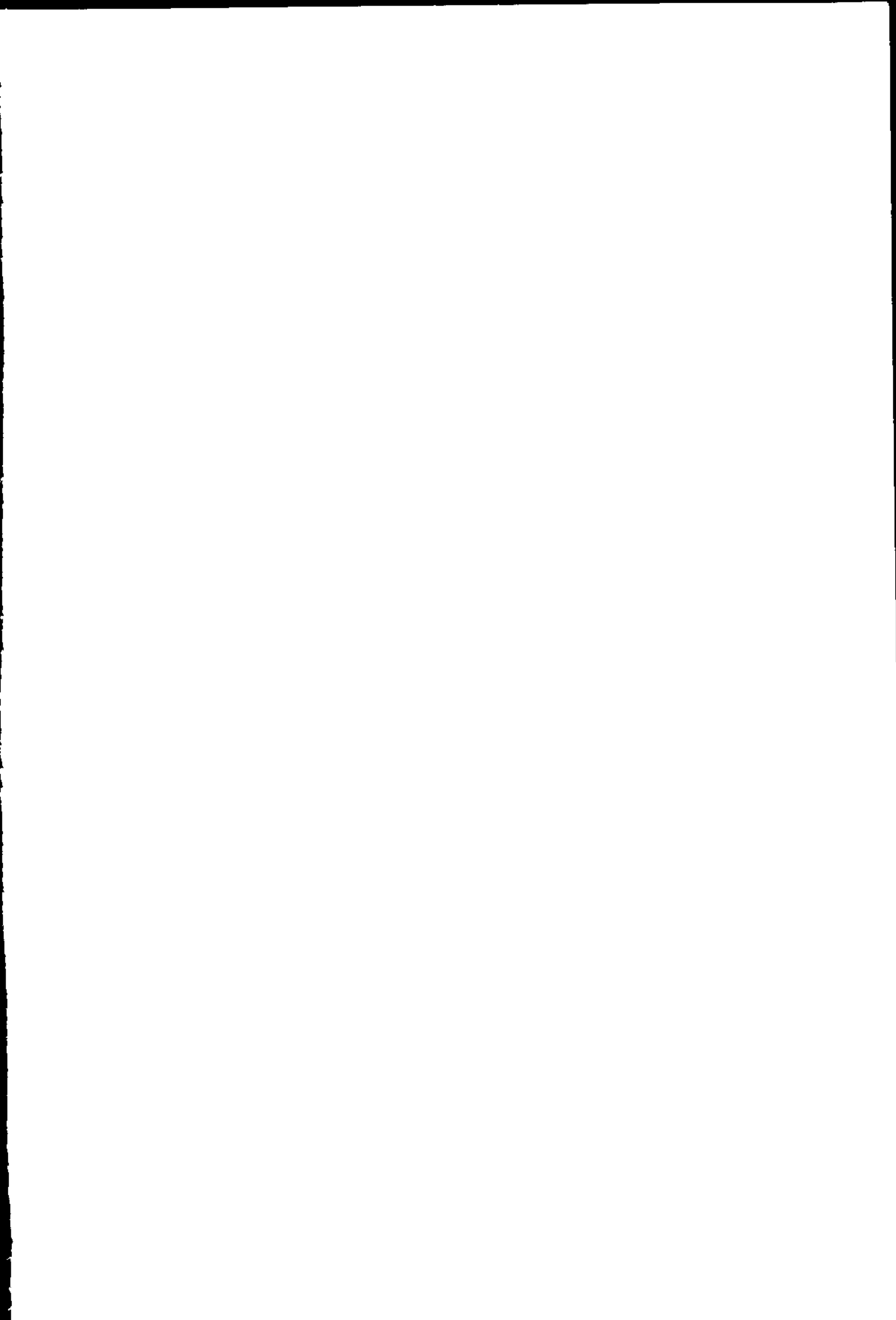
إلى البيت شاهد ضخامة المنزل، وقبل الدخول التفت يميناً وشمالاً وسأل نفسه، أهذا بيت الممرض؟ ودخل وشاهد الأثاث المنزلي والرياش الذي يدل على الثراء فاستغرب الدكتور، وجلس في صالة الاستقبال بعد أن وقف ينظر الأثاث ويتفحصه، وقدمت القهوة فشرب فنجالاً وقال : قهوة بريدة مثل قهوة أبها، ولكن بعض أهل أبها يضعون الزنجبيل في القهوة، وأهل أبها الذين شاهدتهم في الطائرة وفي المطار وفي الشوارع أشكالهم مثل أشكال أهل بريدة ولباسهم مثل لباس أهل بريدة، إن بينهما تشابهاً متقارباً، فعقب عليه أحد الحضور بقوله : البلاد واحدة وكلهم عرب! وضعت سفرة الطعام وتحلق الحاضرون على المائدة فأكل الدكتور طعاماً مدح جودة إعداده ولذة اللحم وقال : أنا لم آكل في حياتي لحمة مثل هذه اللحمة؟! إنها لحمة لذيذة! يبدو أن المراعي عندكم جيدة ومخصبة، وانصرف بعد تناول الغداء إلى المستشفى، وسأل الحارس الموجود في المستشفى عن أسباب تحسن حال الممرض المادية، فقيل له : الممرض يشتغل بالطب، وارتاح الدكتور بقية يومه ومساء ذلك اليوم في المستشفى وفي الصباح قام بالتوجه إلى قصر إمارة مقاطعة القصيم في بريدة وتقدم للسلام على سمو أمير المقاطعة في القصر ثم استأذن من الأمير بالانصراف فانصرف بعد أن بقي دقائق مع الأمير بحث خلالها أمور المستشفى! وانصرف للبحث عن دار في قلب بريدة فحصل على دار صحية بقلب المدينة، وقبل أن ينتقل إلى بيته استدعى الممرض الفني وطلب منه الامتناع عن الاشتغال بالطب، وبين له أن عمله خداع للأهالي وسلب لنقودهم باسم علاج الأمراض في حين أنه ممرض وليس طبيباً، وطلب منه الانصراف إلى عمله وهو خدمة المرضى؛ بتقديم الأدوية التي يصفها الطبيب لهم، والقيام بما يكلف به

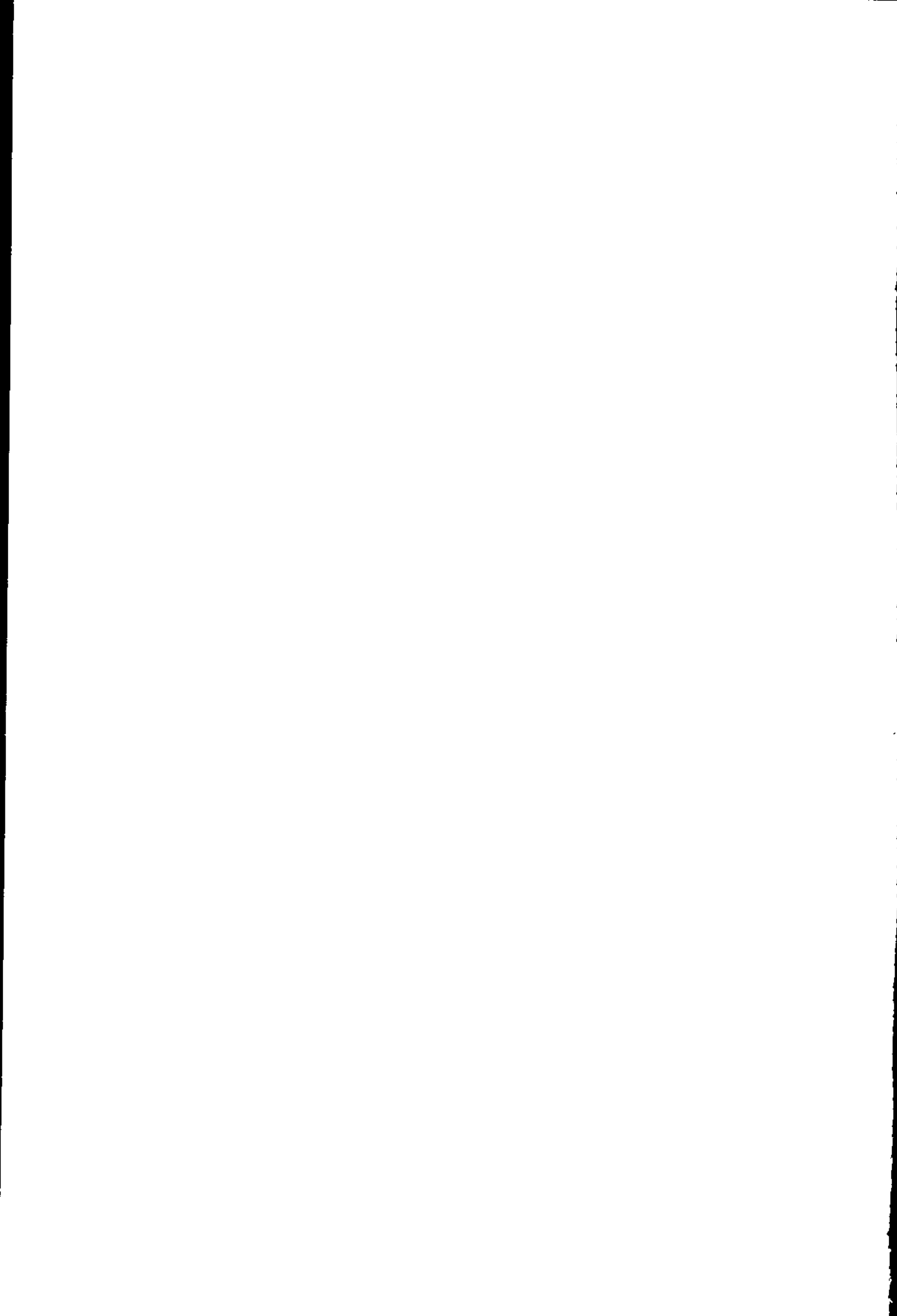
أبها، باسم الإسعافات في الليل للحالات المستعجلة ! وفي لحظة فراغ من عمله في مصح أبها سأل الخادم الصحي أهل عسير ما تصيبهم من أمراض ؟ «شايف صحتهم جيدة». فأجاب الخادم: تصيبهم الحمى إذا نزلوا إلى تهامة وربما في بعض الأودية، فالأودية فيها ملاريا، وهنا قال الدكتور: والله أنا شايف أن المراجعين لنا قليلون، ومع ذلك صار الدكتور يكثر الغياب عن عمله الحكومي طلباً للمال فرفعت ضده شكوى عن غيابه، فصدر الأمر بنقله إلى بريدة، وكان يعرف بريدة من قبل ففرح بالنقل وحزم أمتعته وأوثق غلق حقيبة نقوده وغادر أبها إلى بريدة عن طريق الجو ووصل إلى بريدة يحمل الصورة المشرقة بالأمل على حصول مال وفير، فبريدة مدينة كبيرة وأهلها أثرياء وهم يقدرون الطب، ولهم رحلات تجارية إلى الخارج منذ قديم الزمن وهم على جانب كبير من الأخلاق الحميدة والتجارب الاجتماعية والمرونة والنشاط للحصول على المال، ووصل الرجل إلى بريدة عن طريق جدة فاتجه إلى المستشفى ووضع أمتعته فيه ثم سأل من حوله هذا المستشفى بالأجرة أم حكومي أنا أراه منظماً بعض التنظيم، فقال أحد الموجودين إن هذا بناء حكومي قد أسسه الملك عبد العزيز الله يطيل في عمره من أجل خدمة المواطنين هنا، وقبل أن يستريح الدكتور اتجه في الحال للاطلاع على مستودع الأدوية، فاطمأن إلى وفرة الدواء في المستودع، فطلب من خادم المستشفى أن يهيئ له طعام الغداء فدعاه الخادم إلى بيته لتناول طعام الغداء، ولكن ممرضاً أردنياً حضر وسلم على الدكتور ودعاه إلى منزله، فانتقل معه وترك دعوة الخادم الصحي معتذراً إليه بقوله : الغريب مع الغريب، وهذا أعزب وأنا أعزب نصير مع بعضنا، فأجابه الخادم على راحتك يا دكتور ! فانتقل الدكتور عبد الخالق مع الممرض الفني، ولما وصل معه

وسافر عليها الدكتور عبد الخالق وخادم الصحة يقود السيارة صاحبها فلاح الذي تطوع بقيادتها وتبرع بثمن البنزين، ووصلوا إلى حجلاء وحصنوا أطفالها ضد الجدري فحصل الدكتور على مبلغ ثلاثمائة ريال من تلقيح الأطفال ضد الجدري وواصلوا رحلتهم إلى الخميس. وفي الطريق قال الدكتور لرفيقه في السفر حصلت على ثلاثمائة ريال، فقال الخادم المبلغ قليل يا دكتور. فرد الدكتور بقوله : ليس المبلغ قليلاً هذا المبلغ ما يحصل عليه رئيس الجمهورية في بلادنا ! فعقب صاحب السيارة على قولهما : والله الدكتور رجل شكور، وصلوا إلى الخميس وقام الخادم بالتجوال بين بيوت الأهالي في الخميس والدعاية للدكتور ودعوة الناس لتحصين أولادهم ضد الجدري بعشرين ريالاً لكل طفل، فتوافد الأهالي في الخميس على البيت الذي اتخذه الدكتور مركزاً لعمله يحملون أطفالهم لتحصينهم ! وبدأ الدكتور يحصن الأطفال ضد الجدري باللقاح الذي أحضره بطريقته الخاصة مثلما أحضر الدواء من قبل وحصل الدكتور من بلدة الخميس على مبلغ ألف ريال فضة مقابل تحصين أطفالهم خلال ثلاثة أيام، ولاحظ الدكتور أن أحداً من الأهالي لم يتقدم للعلاج من مرض فقد كانوا أصحاء الأجسام يبدو عليهم النشاط ولم يبد تبرماً من استقامة صحتهم فقد كان هدفه خدمة صحة المواطنين، ولكن أدرك الدكتور أن طبه بضاعة غير رائجة في بلدة الخميس وعليه أن يعود فعاد إلى أبها لمباشرة عمله الحكومي يقدم العلاج مجاناً في المصح الحكومي موزعاً وقته بين العمل الحكومي والعمل في بيته الصغير لصالحه يقدم الوصفة الطبية مقابل النقود ويقدم الدواء بيمينه ليأخذ ثمنه بالشمال، ويمكن القول أنه لم يصنع الدواء ولم يدفع ثمنه، وإنما أخذه من مخزن أدوية الحكومة في مصح

مات الدكتور ؟

وصل الدكتور عبد الخالق من قطر عربي للعمل طبيباً عاماً في أحد مستشفيات المملكة العربية السعودية مطلع عام ١٣٧٠هـ وعمل في مستشفى الرياض فترة قصيرة، ثم نقل إلى مصح أبها وعمل فيه فترة من الزمن وليس أمامه منافس، فقد كان الطبيب الوحيد في أبها فنشأت عنده فكرة استغلال الوقت بعلاج المرضى خارج الدوام الرسمي في منزله بالأجر، وبدأ العمل لمصلحته في منزله فصار يأخذ خمسة ريالات على فحص المريض، ويأخذ قيمة الدواء، فلم يكن في أبها صيدلية تبيع الأدوية، وكان يحضر الأدوية بطريقته الخاصة. ولاحظ أن دخله قليل لا يشبع نهمه للمال، فهو يعرف كيف توضع النقود في البنك ! وفكر بسلوك طريق يحصل منه على المال الوفير بسرعة، فهو لا يطمئن إلى طول بقائه في البلاد العربية السعودية التي يتعامل سكانها القطع الذهبية والفضة، وكان لديه خادم صحي من أهل منطقة عسير فتح له الطريق إلى المال فاقترح عليه أن يكون مطعماً للأطفال ضد الجدري الذي يخيف شبحه أبناء المنطقة على مستقبل حياة الأطفال، فصار يلقح الأطفال بأجر يبلغ عشرة ريالات وثمن الدواء عشرة ريالات. وبدأ في تلقيح الأطفال في أبها ضد الجدري، وحصل على مبلغ من المال وزاد طمعه فقرر الانتقال إلى قرى المقاطعة فطلب من الخادم أن يذهب إلى صديقه فلاح ليحضر بسيارته لنقله إلى حجلاء والخميس وطلب من الخادم أن يصحبه للتعريف به بين الأهالي على أنه الدكتور الذي يحصن الأطفال ضد الجدري، فأحضر السيارة





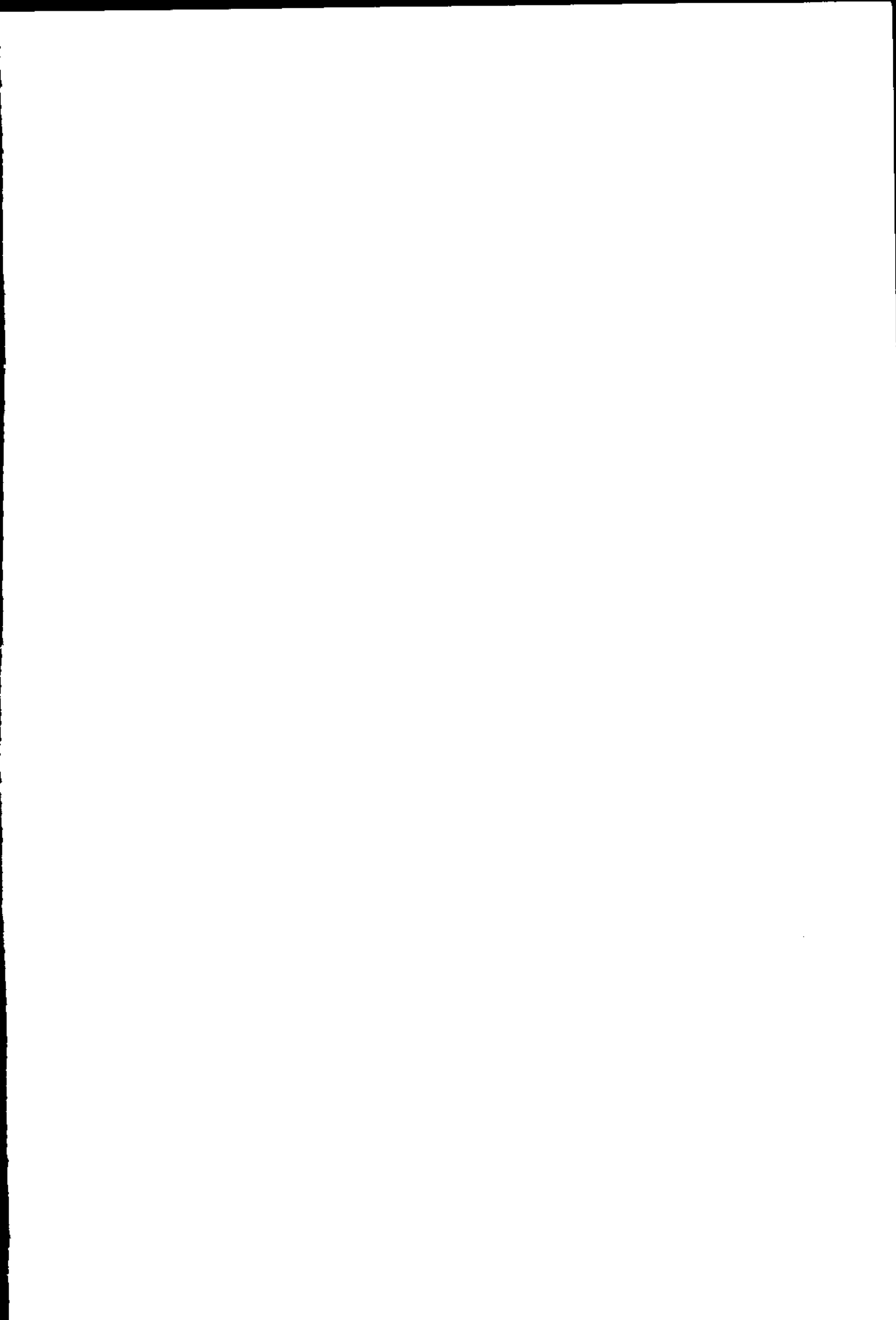
روحية لانطلاقه النشط، ترى هل أثر فيه نشاط أهل المدينة ؟ فالحياة النشطة للسكان تؤثر حتى في الحيوان الصغير. لقد ظل هذا العصفور حبيساً طوال الليل فما إن رأى خيوط الفجر حتى تحركت فيه الرغبة إلى الانعتاق من الأسر فبدأ محاولة الفرار، وظل دقائق يتحايل للخلاص من الأسر ثم انطلق يمارس حريته ويحصل على قوته من جهده وتعبه وينضم إلى العصافير التي تألفه ويألفها وتأمنه ويأمنها، حتى الطيور الصغيرة تمارس الحرية وتعشقها مثل هذا العصفور وتأبى حياة الأسر حياة الذل في حوزة الإنسان وتضييق الإنسان. ما أجمل الحرية لمن يحسن الاستمتاع بها كالعصفور الصغير.

بريدة

١٤/٤/١٣٨٤هـ

العصفور الحر

في ليلة ١٣٨٦/٤/١٤هـ كنت في مدينة بريدة، وكنت في سطح دارنا أستلقي على فراشي في الساعة الخامسة أنظر النجوم الساطعة في سماء بريدة الصافية، هدوء شامل وسكون وصفاء تجلب الراحة النفسية، وإذا بعصفور يسقط على الأرض، ثم يسير محاولاً الفرار والعودة إلى عشه ولكن لا يهتدي الطريق إلى عشه، ربما يكون أعشى لا يرى في الصبح وخلال النهار، إنه يصطدم بالجدران وخشيت عليه من قط شره يلتهم عظامه الهشة فرحمته وقمت إليه فأمسكته بيدي، ولو كان حولي طفل لنازعني في تملكه، ولكن الأطفال نيام، إنهم ينامون مبكرين وهذه نعمة لهم تجعلهم يستيقظون مبكرين. واهتديت إلى وضعه داخل مخبأة ثوبي المعلق بالوتد حتى الصباح حيث أعطيته حرية الانطلاق والطيران في الجو قبل أن تصل إليه يد طفل يعبث به حتى يموت دون أن يشعر بألمه، وصحوت مع الفجر ولم أسرع إلى فك إسار هذا العصفور الضال، وأحسست به يتحرك في مخبأة الثوب المعلق، يحاول الفرار، طلباً للحرية، فالحرية تتطلبها حتى الطيور والحيوانات الكبيرة لأنها ترتاح في انطلاقها في هذا الكون الواسع دون تضييق عليها، بقيت أنتظر ظهور العصافير من أعشاشها ليلحق بمواكبها الصغيرة. وبينما أنا أنتظر رؤية العصافير وسماع زقزقتها تحايل العصفور وانطلق هارباً من مخبئه فقد ألف الحرية والحركة والانطلاق وطلب الرزق من الحقول القريبة من المدينة، وكان حقاً عصفوراً نشيطاً حراً يأبى الأسر، ويأبى حياة الأسر الذليلة، فابتسمت فرحاً لخلاصه وغمرتني فرحة وسعادة





لعلهم متأكدون أن الرجل يعرف أن في بلدته التي جاء منها مركزاً للضمان الاجتماعي، لعلهم يعرفون جيداً أن الرجل يعرف الطريق إلى مركز الضمان الاجتماعي، لقد كان البدوي الكهل القوي يصيح ((ويش تبون مني)) ((فكوني من شركم)) ولكنهم قد تكاثروا عليه، وكان على ما يبدو لا يدرك قصدهم وهم قد أمسكوا به كالغنيمة، ولم ييأس عبد العالي من تراجع المطاردين عن الرجل فاقترب منهم وقال : «إن الرجل الذي تمسكون به لا يعرف قصدكم من مطاردته وإنني أرى أن تشرحوا له مهمتكم، وأن توجهوه لكسب الرزق وتخلوا سبيله، ولكن محاولات عبد العالي مع القناصة قد فشلت فقد حمل الكهل القوي بأيدي المطاردين ووضعوه في صندوق سيارة تابعة لهم حكومية كانت تقف في الساحة ورفعه القناصة المطاردين ومعهم شرطي وتحركت السيارة تتبعها نظرات عبد العالي وهو يقول : (لا حول ولا قوة إلا بالله)، إن منع الفقير عن السؤال بإغنائه عن السؤال لا بمطاردة الموظفين الذين يحتمون برجل من رجال الشرطة! ثم انصرف وهو يقول : ترى لو نزلت الطائرة في مطار بريدة أكنت أشهد هذه المأساة الإنسانية لقد ظننت الرجل سارقاً فإذا هو فقير.

١٣٨٤/١٠/٤هـ

بالرجل الذي ألقى عليه القبض وصاح به خلصني الله يخلصك من كل شر! وإذا بالهارب يحتج ويقول : «ويش تبون مني»؟ أي شيء تريدونه مني؟ وهنا أدرك عبد العالي أن الهارب شحاذ فقير يسأل الناس، وهنا أدركت عبد العالي الرحمة وسأل عن الهارب متأكداً هل هو سارق؟ فأجابه المطاردون بالنفي وأكدوا إنه فقير شحاذ، فندم عبد العالي على اعتراض طريق الفقير ورجا المكلفين بمطاردته ومسكه أن يتركوا الفقير من أجله وشرح لهم أنه اعترض طريقه ظاناً أنه سارق. ووقف مع المسكين بالرجل دقائق وهو يرجوهم أن يتركوه من أجله وقال لهم : يا جماعة الخير أنا أمسكته على أساس أنه سارق، أما وأنه فقير شحاذ يسأل الناس فأرجو أن تتركوه من أجلي، ولم يؤثر فيهم توسل الرجل ولا احتجاج الفقير، ووقف الناس متفرجين ولم يعترضوا على عمل المطاردين الذين يمسكون بالرجل وهو يحتج عليهم، فاقتادوا الفقير إلى ساحة الصفاة وهو يتمنع عليهم وعبد العالي يتبعهم نادماً على مسك الرجل الفقير، ويرجوهم تركه، وقام المطاردون القانصون بربط يدي الرجل ولكنه كان قوياً فتمرد عليهم وقام بحركة لولبية فابتعد عنه القابضون عليه، ثم عادوا وأمسكوا به، فانتفض الرجل بين أيديهم وهم يمسكون بثوبه ويديه ومع انتفاضة الرجل الفقير البدوي الشجاع القوي الجسم انخلع ثوبه، وصار عرياناً أمام الناس. ويبدو أن قوة جسم الرجل كانت تغري هؤلاء الموظفين بمسك الرجل لمنعه عن السؤال وهنا تغير موقف الناس السلبي وحاولوا تخليصه بالاعتذار عنه، بتوبته عن السؤال ولكن دون جدوى فلم يقتنع القابضون على الرجل، لعل المطاردين كانوا يعرفون أنه غني وأنه لا يحق له السؤال في الأسواق والتجمعات، ولعلهم يرون أن في وجود مراكز للضمان الاجتماعي في المدن والقرى ما يغنيه عن السؤال،

المركزي، فتوفر للركاب الوقت وتريحهم من عناء السفر الذي لا يوصلهم إلى البلاد المقصودة وواصلت الطائرة الرحلة إلى جدة وحطت على أرض مطارها وبعد هبوطها ونزول الركاب دعوا للتوجه إلى فندق من الدرجة الثالثة يقع جنوبي جدة، وتوزع الركاب في غرف الفندق ثم أخذ البعض منهم في التوجه إلى مكة لأداء العمرة، وتوجه البعض إلى معارفهم وأقاربهم في جدة، وبقي البعض في الفندق ولاشك أن الذين بقوا في الفندق أسوأ حظاً من الذين انتقلوا إلى مكة أو زاروا أقاربهم.

وفي صباح يوم ١٣٨٤/٩/٢٨هـ دعي الركاب للتوجه إلى مطار جدة فاتجهوا إلى المطار واستقلوا طائرتهم التي أعادتهم إلى الرياض، ولما وضع أحد الركاب قدمه على أرض المطار قال لمن حوله أما كان الأحسن أنهم أعادونا إلى الرياض أمس حينما تعذر هبوط الطائرة في بريدة، فعقب آخرُ رحلة بالمجان هذا من كرم الخطوط التي تملك الطائرة، أمضى بعض الركاب يومه في الرياض في انتظار طائرة الغد وما يأتي به الغد، ومنهم من ركب سيارة إلى بريدة حال وصوله إلى الرياض، ومنهم من انتظر، وكان عبد العالي قد تأخر يومه في مدينة الرياض، وفي المساء نزل إلى سوق المدينة لشراء حاجة من السوق، وفي سوق دكاكين أمانة مدينة الرياض غرب قصر الحكم كان عبد العالي يقف أمام متجر، وإذا به يسمع جلبة وصخباً ويسمع ضرب أقدام رجال هاربين أو مطاردين، وإذا برجل ربعة قوي الجسم أسمر اللون أشيب يركض لاهثاً وخلفة ثلاثة رجال يلهثون وراءه مطاردين له ويصيحون أمسكه .. أمسكه وهو أقوى منهم إنه من البادية وقد سبقهم، والتفت عبد العالي واستقبل الرجل وقطع عليه الطريق وطرحه، وليته لم يفعل، لقد اعتقد عبد العالي أن الهارب سارق فطرحه أرضاً، وسلمه للراكضين خلفه، ولكن الهارب تمسك

الهارب

غادر عبد العالي مدينة الرياض على متن طائرة تجارية إلى مدينة بريدة صباح يوم ١٣٨٤/٩/٢٧هـ وبعد خمسين دقيقة كانت الطائرة تحلق في الجو فوق مطار بريدة، واسترعى اهتمام الركاب تأخر هبوط الطائرة على مدرج المطار، تلفتوا حولهم وتناحر بعضهم متسائلين، وكانت الأنظار تتجه إلى مضيف الطائرة الواقف الذي يلتفت بوقار الصمت يسأله الركاب عن تأخر نزول الطائرة فيبتسم ولا يرد جواباً، إنه يخفي شيئاً وراء ابتسامته، وقد يكون معذوراً لعله مثل الركاب في علمه عن تأخر هبوط الطائرة وكانت الأمطار والتي هطلت على أرض المطار ليلة ١٣٨٤/٩/٢٧هـ غزيرة وخلفت الضباب منتشراً في سماء المطار يحجب الرؤية التي تمكن الطيار من الهبوط والسير على أرض المطار وأخذ الركاب ينظرون إلى الباب المؤدي إلى مقعد القيادة عسى مضيف الطائرة أو مساعد الطيار يطل برأسه فيحاولون إقناعه بالهبوط على أرض المطار، وآيس الركاب من هبوط الطائرة واللقاء بأحبتهم هذا اليوم إلا أن تكون معجزة. وقبل أن يرخوا أجسامهم التي ما زال يشغلها انتظار معجزة على مقاعد الطائرة أعلن المضيف أن الطائرة لن تستطيع النزول بمطار بريدة وهي الآن متجهة إلى مطار جدة، فرح البعض من ركابها بتهيئة الفرصة لأداء عمرة في شهر رمضان المبارك، وامتعض البعض ولكنهم تذرعوا بالصبر، ولج البعض بالاحتجاج على هذا التصرف منتقدين الوضع في المطار الذي لم يكن فيه أجهزة تشعر مطار الرياض بتعذر هبوط الطائرة في مطار بريدة الذي هو مطار مقاطعة القصيم



استعارت هي الأخرى سروالي! واقتربت مني الزوجة المراقبة العجوز؟! وباقترابها لمحت لون سروالي، فقالت : بعد تصلي؟ وهذا السروال من أين جاءك؟! ونظرت إلى ساق الفتاة العروس المسكينة المرتجفة خوفاً من تسلط هذه المرأة العجوز؟! وقالت : وهذا السروال، فضعت أنا بين الخوف من زوجتي العجوز وبين مفاجأة الوضع فقد فضحنا تبادل السروالين، وأردت أن أبعد الخوف عن الزوجة الصغيرة فقلت لها : إننا كنا نلعب ونتطارح فنهبت سروالها، ونهبت سروالي؟! وليس في الأمر شيء غير هذا اللعب. ولكن ماذا حصل، إن لسان العجوز الطويل قد امتد وتطاول فهربت من الغرفة تاركاً سروال الزوجة عند بابها، وبقيت المسكينة الفتاة الصغيرة العروس ترتعش تحت سياط لسان العجوز فهربت من البيت وتركت العروس تحت رحمة الله لينقذها من هذه العجوز المتسلطة.

مراقبتها وتحركاتها ومرابطتها لنا، مع ما أنا فيه من ضعف جسمي من أثر تعاقب السنين. ودخلت مرة إلى الدار فإذا بالزوجتين القديمة والجديدة في استقبالي عند مدخل الباب وكنت متشوقاً للخلوة بالزوجة الجديدة، ولكن كيف الخلاص من القديمة المرابطة المراقبة، فعمدت إلى الحيلة وأظهرت اهتمامي بالزوجة القديمة، وسألتها عن صحة والدها المريض، وبالغت في سؤالي عن صحته وسألتها هل قامت بزيارته هذا اليوم فنفت، لقد كانت مشغولة عن الاهتمام بصحة والدها بمراقبة التحركات والاجتماعات داخل بيتها، فرجوتها أن تذهب لزيارة والدها وتخبرني عن صحته، فصدقت الحيلة وقبلتها عن حسن نية، وخرجت لتطمئن على صحة والدها وتعود لتخبرني عن صحته. ولما خرجت اتجهت إلى الباب وأغلقته، وانتقلت أنا وزوجتي الصغيرة الجديدة إلى غرفة مفروشة وبدأنا في التقارب، ولما ابتعدت الزوجة العجوز عن دارنا استولت عليها الشكوك والظنون بنتيجة خلوتي بضرتها. وأعتقد أنني لم أحكم قفل الباب من العجلة، فعادت المرأة الأولى مسرعة ففتحت الباب، وأحسست بحركة الباب فانزعجت وابتعدت عن زوجتي الجديدة، ومن العجلة لبست سروال زوجتي، ولبست زوجتي سروالي، واتجهت إلى القبلة أصلي والزوجة الجديدة قبعت في ركن من الغرفة، ودخلت علينا العجوز مسرعة وتلفتت يمينها وشمالها تتفقد الوضع، ولم تر شيئاً يزعجها : رجلٌ يصلي، وفتاة قابعة في زاوية الغرفة والهدوء يخيم على جو الغرفة، وجلست العجوز تستريح وتراقب ما حدث في غيبتها القصيرة، وأنا واقف أصلي وأطيل الوقوف، وركعت فأطلت الركوع، وسجدت وأطلت السجود، وهي تراقب صلاتي، ولم أكن قد فطنت للسروال الذي استعرته من زوجتي دون علمها، ولم تكن الزوجة المسكينة قد فطنت إلى أنها قد

وعادت العجوز ؟!

عبد الرحمن رجل ظريف، وهو يشتغل بالتجارة، ولم تشغله التجارة عن الظرافة، وربما كان يتوصل بظرافته إلى ترويج تجارته، أو الاحتفاظ بعطف من يتعامل معهم بتجارته فمن يدري وإذا صح تصنعه للظرافة والدعابة فإن ما سوف نرويه هو مصنوع من نسج خياله لا مكان له في عالم الواقع! ولما اشتهر به عبد الرحمن من الظرافة قال له عبد العزيز : يا عبد الرحمن أخبرني عن أطرف موقف مر بك فأطرق عبد الرحمن رأسه يستعيد شريط ذكرياته وقال: تقدم العمر بزوجتي وشعرت أنني بحاجة إلى زوجة شابة ؛ مع تقدم سني أنا الآخر ! فقلت لزوجتي أريد منك أن تزيدي في بهجتي وسروري، فأنا مسرور في حياتي معك ولكنني أريد منك أن ترشديني إلى امرأة تساعدك على أمور البيت، أريد أن أتزوج على يديك، فابحثي لي عن زوجة. لم يكن هذا السلوك في حياتي الزوجية يهمها كثيراً كما اعتقدت، فبحثت لي عن زوجة وخطبتها لي، وتم الزواج، ونقلت المرأة الجديدة إلى بيتي فأدركت أن زوجتي الأولى كبيرة السن قد تغيرت نظرتها لمباشرتي والاهتمام بي فقد صارت تهتم بالملابس وطالبت بنصيبها من المبيت، فصرت أنام معها وأترك الفتاة تنام مع والدتها. وبدأت زوجتي الأولى تبكر بفرش فراش النوم، ولم تكن هذه من عاداتها قبل الزواج، دخلت في سباق مع الزوجة الجديدة في اللباس والتطيب والنظافة، حتى قلت لها في يوم من الأيام : أنت رجعت بنتاً ولو علمت أنك ستتغيرين إلى ما أنت عليه الآن لما تزوجت فضحكت من أعماق قلبها الباكي طبعاً وصارت تراقب اجتماعي بالزوجة الجديدة وترابط معنا كثيراً، فلا يبعدها عنا إلا النوم. وضايقتني في

ذلك الليل عاصفاً كئيباً، فقد ثارت العواصف تحمل معها الغبار فتسلل إلى غرفتي مع النافذة المفتوحة «خفاش» كبير له صوت كريه، وإذا بحشرة «وزغ» تستيقظ من نومتها وتتحرك من ركودها بين أعواد جريد النخل وخشب الأثل التي يسقف بها سقف الغرفة وترسل صوتها الممجوج، وكأنها تغازل الخفاش، أو هي تغازله وبينهما مودة، فبقيت أسمع صفير الخفاش ونقيق «الوزغ» وقلت سبحان الله إن هذا قذر يميل إلى القذر، ونجس يميل إلى النجس، ولما كان صوت الاثنين كريهاً على النفس ثقيلاً على السمع بادرت إلى طرد هذين القذرين وإبعاد صوتهما، وليس غير النور يطرد الخفافيش فمددت يدي إلى زر الكهرباء ضغطت بأصبعي على زر المصباح الكهربي وإذا بالنور يجلل حيطان الغرفة وسقفها ويبعث فيها حياة النور التي بددت الظلام، وإذا بالنور يزيد الخفاش عمى مع عماه مما يدل على أنه يبصر ولم يكن يبصر لما طرده النور ولكن من الجائز أن رؤيته ضعيفة فتنقلت رجلاه من السقف حيث باغته النور الذي يكرهه وكان يعلق جسمه متدلياً برجليه مزهواً بمجاورة الوزغ، فيطير بعد أن كان في أنس ومأمن ويأخذ طريقه مع النافذة المفتوحة حيث يتسلل منها هواء بارد كان هاديه إلى طريق الهرب من النور والنجاة بريشه، ثم تركت النور يضفي على الغرفة هيبة يخافها ويتحاشاها الخفاش الذي طار يبحث عن مكان مظلم فلا حياة للخفاش في النور، وما أكثر الظلام في بلاد يرتفع فيها سعر الكهرباء إلى حد الجشع والاستغلال والاحتكار وإيذاء من يحاول خفض سعر الكهرباء بأصناف الأذى وما أجمل القناعة بالتاجر والفقير.

وطار الخفاش

يقال الحاجة أم الاختراع، ويوم كانت البلاد تعيش عصر ما قبل الكهرباء بالنسبة لاستعمالها في بلادنا لا في وجودها في العالم، كان الناس يبنون الخلوات في المساجد وفي بعض البيوت، وكان لهذه الخلوات نصيب من الظلام أكثر من غيرها، يلجؤون إليها في نجد فراراً من قارس البرد في الشتاء، ويلجؤون إليها في مكة من لفح حرارة الهجيرة في الصيف، وسبحان مغير الأحوال، ويؤسسها الناس في بعض البيوت والمتاجر للتوسع بها إذا ضاقت بهم الأرض، وإلى خلوات المساجد والبيوت تتسلل الخفافيش لأنها تأنس بالظلام وتأمن بالابتعاد عمن يؤذيها أو يقتلها، فتأخذ في الطيران تقطع فضاء الخلوة بلا ملل ولا تعب وإذا اقتربت من جسم صلب مثل أعمدة الخلوات تفادت الاصطدام بحاسة غريزية فيها وإلا فيقال عنها إنها لا تبصر، ويبدو أنها تحدد اتجاهاتها وسيرها بحاستها غير المبصرة، وأنها تستفيد من الهواء في معرفة طريقها. إنها مخلوق عجيب في إدراك خط سيرها عن طريق إحساسها بالهواء وفي استمرارها بالطيران ساعات لا تمل ولا تتعب بدليل أنها لا تتوقف عن الطيران وكأنها طائرة حراسة أو مراقبة وهي مخلوق قذر يكرهه الناس ويستقذرونه لنجاسته.

كنت في ليلة من شهر صفر ١٣٨٩هـ أضطجع في فراشي داخل غرفة وقد مضى ثلث الليل، وقد أطفأت النور لأنني كنت في بلاد يرتفع فيها سعر الكهرباء ارتفاعاً فاحشاً، ولم أشأ إثقال الفاتورة الشهرية بأرقام استهلاك الكهرباء، فيكفي من نور الكهرباء ما هو ضروري، حتى يرخص سعره ويبدأ الناس ينتفعون به حق الانتفاع، وكان آخر اليوم الذي سبق

من قبل الأطباء أو الطبيب المناوب. وحاول الممرض أن يشرح للدكتور معرفته بالأمراض من ملازمته للأطباء في عملهم وأنه يعرف دواء كل مرض من التجارب، ويعرف أسماء الأدوية ويقرأ الكتابة الإنجليزية، فغضب الدكتور وقال له : طبيب من غير كلية الطب غير معقول وغير مقبول ويتحمل مسؤولية عمله وخطأه في العمل، وحاول مرة أخرى أن يقنعه الممرض فقال الدكتور: انتبه لنفسك يا أخي لو كنت ابن سينا ما سمحت لك بالعمل في الطب، هل تعرف ابن سينا؟ إنه أبو الطب والأطباء في العالم، ولكن طبه مبني على التجربة الشخصية، وكان رجلاً صالحاً يجد عوناً من الله في عمله. قال الممرض : ومالي وابن سينا إذ كنت لا تسمح له بالعمل في الطب، أنا رجل عائش في هذه المدينة فلا تحرمني من الرزق فنهره الدكتور وقال له : أعاقبك إذا لم تترك الطب للأطباء وحدهم. وانصرف الممرض عن وجه الدكتور وقال له : كلاماً يسمعه إياه من بعيد : والله أظنك يا دكتور سوف تقطع رزقي، ولم ينصرف إلى عمله بل ذهب يشكو الطبيب إلى موظفي المستشفى ويقول لهم إن هذا الطبيب الجديد بدأ عمله بقطع رزقي. وتحول الموظفون في المستشفى من أمكنة أعمالهم إلى تجمعات صغيرة داخل غرف المستشفى يتحدثون عن منع الدكتور الجديد للممرض عن ممارسة الطب! وذهب الناس في المستشفى ثلاث فرق منهم المؤيد لمنع الدكتور للممرض عن ممارسة الطب ومنهم المعارض ومنهم صامتون متفرجون، ولكن موظفي المستشفى تحولوا إلى زوبعة بشرية داخل المستشفى، وشعر الدكتور بما دار في المستشفى فترك غرفة عمله وانصرف إلى الموظفين الصحيين يتفقد وجودهم ويأمرهم بملاحظة عملهم، ثم أذن للمرضى بدخول المستشفى وكانوا في ساحة الانتظار

وقد اختل نظام العمل في المستشفى عن المعتاد ولاحظ المواطنون الزائرون للمستشفى أنهم قد تأخروا عن الدخول إلى غرف الأطباء عن العادة في كل يوم، ووجدوا طبيباً جديداً يستقبلهم ويرحب بهم ويهش ويبش في وجوههم، وقام بفحص البعض منهم وصرف البعض إلى طبيب آخر، وإلى طبيبة المستشفى التي استقبلت النساء فأدركوا أن مديراً جديداً عين في إدارة المستشفى، ومضى وقت العمل في المستشفى وعند انصراف الموظفين تجمعوا في غرفة الدكتور الجديد مدير المستشفى عبد الخالق ورحبوا به وتمنوا له طيب الإقامة وعرض عليه البعض زيارة بيته، وكان يعتذر منهم ويطلب تأجيل مواعيد الزيارة لبيوتهم حتى يطمئن إلى انتظام عمل المستشفى، وسأل عن تأسيس المستشفى وكان قد سأل عنه من قبل فقال أحد الحاضرين هذا المستشفى أسسه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود عام ١٣٥٨هـ على حساب الدولة، وكان الملك عبد العزيز آل سعود يرسل بعثة طبية كل سنة تقيم في بريدة تعالج المحتاجين لعلاج طبي وتجري عمليات جراحية لمن يلزمه إجراء عملية وكان يستأجر لها مقراً للعمل ثم بني هذا المستشفى وهو كما ترى صغير لا يفي بحاجة المدينة والقرى والبلدان المجاورة التي يأتي عدد من سكانها يومياً للعلاج في هذا المستشفى، قال الدكتور : إن المراجعين للمستشفى هذا اليوم بلغوا أربعمائة مراجع وهذا العدد كبير لا يصل إليه عدد المراجعين للمستشفيات إلا في المدن الكبيرة مع أن صحة سكان هذه البلاد جيدة والمدينة خالية من الأوبئة وقال الدكتور عبد الخالق المدير الجديد إنني أريد التعرف على هذه المدينة الكبيرة، وأريد تنظيم عيادتي الخاصة في البيت لأجل أن يخف زحام المراجعين للمستشفى، أنا خادم المواطنين

من عيوني أقدم العلاج للمرضى في عيادتي الخاصة، أنا لا أقصد جمع المال ولكنني أخدم المرضى وآخذ مقابل أتعابي بدون جشع ووزارة الصحة لا تعارض في فتح عيادة خاصة، ثم التفت إلى الممرض الفني المتطبب وقال له : أنت يا أخي انتبه لنفسك لا تعمل في مجال الطب وإذا خالفت أمري لك بالمنع سوف أنقلك من مدينة بريدة، فعقب أحد الموظفين: كل شيء يهون عليه إلا النقل من بريدة، إنه يحب بريدة وأهل بريدة حتى أنه لم يأخذ إجازة منذ ثلاث سنوات فهو يقضي وقته بالإقامة هنا والعمل وانفض اجتماع الموظفين وأخذوا طريقهم إلى باب المستشفى الخارجي، وفي الطريق قال كاتب في المستشفى اسمه محمد للممرض : صحيح أنه لا يحق لك العمل في الطب لأنه غير مصرح لك بذلك من جهة، ومن جهة أخرى فأنت تضر المرضى ولكن غرض الدكتور من منعك عن الاشتغال بالطب حصر النفوذ له وحده أو له وللأطباء الذين لا يستطيع منعهم فيعملون مثله في عياداتهم، إنه لا يريدك أن تشارك الأطباء في غنيمة المال إنه حريص على ما يبدو على جمع المال، ورفع مقدار رصيده في البنك بسرعة، وكان الكاتب يحدث الممرض ناصحاً ومفسراً تصرفات الدكتور. ثم انصرف الكاتب والممرض وكان آخر من انصرف من الموظفين، وذهب كل موظف إلى بيته وبقي الدكتور الجديد في المستشفى، فاتجه إلى أدوية موضوعة في خزانة عيادته في المستشفى فنقل بعضها إلى حقيبة يدوية بعناية ثم ركب سيارته الخاصة بالمدير واتجه إلى منزله يرتب معداته الطبية في عيادته الخاصة، ووضع الأدوية في مكان منظور، ثم ذهب يتناول طعام الغداء عند جاره عمر الحربي الذي كان في انتظاره على مدخل داره فرحب به ودخل الضيف والمضيف إلى الدار وفوجئ الدكتور بالممرض المنافس مدعواً لتناول طعام

الغداء معه، فقدمه صاحب البيت بقوله صديقنا نائف رجل طيب يعالج أطفالنا مجاناً! فابتسم الدكتور ابتسامة عتاب واستهجان لمعالجة الأطفال من قبل ممرض! فأدرك الممرض ما وراء الابتسامة واستدرك بقوله : أمراض الأطفال من البرد وما شابهه فأعطيهم الأدوية الخاصة بالسعال الديكي ويشفون بإذن الله، ما فيه خطر يا دكتور من علاجي، وتناول الحضور الطعام ثم انصرفوا شاكرين لمضيفهم كرمه. وذهب الطبيب إلى داره فاستراح حتى أذن العصر، ثم توضأ وذهب ليؤدي صلاة العصر في الجامع الكبير، ودخل المسجد وأخذ مكانه في الصف الأول قرب الإمام فلاحظ وجود رجل عملاق يفترش سجادة خاصة وهو متأنق في ملابسه الجميلة وعباءته المقصبة الجديدة ويضع على عينيه نظارة شمسية مذهبة وبعد أن جلس الدكتور عبد الخالق سأل عن هذا الرجل فقيل له هذا الدكتور : عبد الله العماني من شرقي الجزيرة العربية، جاء إلى بريدة قبل ستة شهور وهو يعالج المرضى وهو جار لك في الدار، ألم تكن تعرفت عليه من قبل فهز الدكتور عبد الخالق رأسه بالنفي. وقضيت الصلاة وقرأ قارئ من كتاب صحيح البخاري فاستمع الدكتور منصتاً للأحاديث النبوية الشريفة، ثم شاهد رجالاً يقومون من الصفوف ويتحلقون حول إمام المسجد فسأل عن هؤلاء الرجال فقيل له هؤلاء طلبة العلم يأخذون درساً في الحديث النبوي الشريف على هذا العالم، فأبدى الدكتور إعجابه لجاره بوقارهم وسمتهم وحسن قراءتهم بعد أن سمعها، ثم سمع الشيخ يشرح الدرس بعد أن فرغ الطلبة من قراءة درسهم حفظاً وأعجبه شرح الشيخ، وانتهى الدرس وانصرف من في المسجد وأخذ الدكتور عبد الخالق طريقه إلى بيته وفي الطريق سلم عبد الله العماني على الدكتور عبد الخالق وعرفه بنفسه : الدكتور

عبد الله العماني، فسأله الدكتور عبد الخالق بقوله: من أية جامعة تخرج الدكتور عبد الله ؟ فقال العماني : أنا مارست الطب مع الأطباء في مستشفى البحرين كنت ممرضاً وعرفت الأمراض والطب والأدوية من الأطباء المهرة الإنجليز فلا تقطع رزقي، بريدة مدينة كبيرة يا دكتور، وتكلم معه باللغة الإنجليزية، ثم هز رأسه مودعاً للدكتور وقال إنه سيذهب لزيارة مريض وإلا كان رجاه أن يشرب القهوة في داره وأخذ كل منهما طريقه إلى حيث يقصد. وصل الدكتور عبد الخالق إلى بيته واتجه إلى عيادته يستقبل المرضى الذين علموا بوصول دكتور جديد ومعه أدوية. ويدأ يستقبلهم ويصف لهم العلاج الذي يقدمه لهم ويأخذ منهم النقود الفضية دون أن يكلفهم بالذهاب إلى صيدليات المدينة، وخرج المرضى يشكرون هذا الدكتور والذي وفر لهم عناء الذهاب إلى الصيدليات ودفع ثمن الدواء باستحضاره الأدوية في عيادته مخالفاً عادة الأطباء الذين يأخذون منهم أجرة الوصفة الطبية ويكلفونهم الذهاب إلى الصيدليات وتقديم ثمن الأدوية للصيدليات وغربت شمس يومه في العمل فجمع ستمائة ريال مقابل الفحص وثمن الدواء. وفي الليل زاره أحد الجيران ورجاه أن يسمح للممرض بإعطاء العلاجات للمرضى في بيوتهم إذا كان العلاج قد وصف من قبل الدكتور مثل إعطاء الحقن، فقال الدكتور عبد الخالق : ولكن أنا لا آمنه على التصرف من عنده دون الرجوع إليَّ، أخشى أن يستغل التصريح له، ولا يمكن أن أسمح له أن يشتغل في غير المستشفى وتحت إشراف أحد الأطباء فأنا أعرف أن هذه المدينة يفد إليها من البادية من لا يفرق بين الدكتور والممرض ألا تشاركني بالخشية من استغلال وجوده يستقبل المرضى في بيته فيعمد إلى علاجهم، وأنا لم أمنعه من العمل خوف

مزاحمتي على المصلحة ولكنني مسؤول عن صحة سكان هذه المدينة ومن يفد إليها وهذا الرجل الممرض غير مصرح له بالعمل في الطب ولابد من توقفه عن العمل أو ترحيله من هذه البلاد. وانصرف الجار دون إقناع الدكتور بالسماح للممرض بالعمل في مجال الطب حتى في تقديم الدواء الموصوف من قبل الدكتور نفسه.

فذهب إلى الممرض وأبلغه أن الدكتور «فاتح بطنه» للدراهم ولا فائدة من مراجعته، وفي اليوم التالي داوم الدكتور في المستشفى ولكنه حضر متأخراً فقد زاره في الليل عدد من الأهالي يحملون أطفالهم ويطلبون علاجهم، وكان الدكتور يميل إلى الحديث مع الأهالي فكان يقضي الوقت معهم في الحديث الطويل، وأمضى يومه الرسمي في المستشفى ولكنه كان ينظر إلى ساعة يده مستعجلاً مضي الوقت ليعود إلى عيادته المنزلية، فرنين القطع الفضية مازال يداعب طبلة أذنه اليمنى. وانتهى الدوام وانصرف الموظفون جميعهم قبل انصراف الدكتور المدير الذي كانت له حاجة في المستشفى يسميها نقل أدوية للإسعاف لحالات مستعجلة في الليل، فالمرض لا يرحم إنه يداهم بعض المواطنين على أثر أكلة دسمة مثلاً، فيطلبون الإسعاف فأقدمه لهم هكذا كان الدكتور يحدث نفسه، نقل الدكتور الأدوية التي يحتاجها إلى حقيبته بعد أن تأكد من انصراف جميع الموظفين وانصرف إلى بيته يحمل الحقيبة المشبعة بالأدوية حين وضعها في عيادته الخاصة التي تدر الربح الذي لا يتناسب مع راتبه في المستشفى الحكومي كما قدر دخله في اليوم الأول، وأكل طعام الغداء واستراح في بيته. وبعد صلاة العصر فتح عيادته وبدأ يستقبل المرضى ويقدم لهم العلاج اللازم ويقبض الثمن وبينما كان الدكتور يقدم الدواء لمريض دخل رجل وسلم فقدمه خادم الدكتور

بقوله: هذا الدكتور أحمد، فدعاه الدكتور عبد الخالق للجلوس ولما فرغ من المرضى الذين لديه التفت إليه وسأله كيف حصل على لقب دكتور، فقال : إنه تمرن على الطب في مستشفى الجيش البريطاني في الأدوية قبل استغلالها. فأخبره الدكتور بعرض الأدوية عليه فسماها بأسمائها الصحيحة وذكر الأمراض التي تعالج بها ولكن الدكتور عبد الخالق عقب بقوله : هذا لا يكفي كيف تعرف الأمراض وأنت غير طبيب، فرد أحمد بقوله بالتجربة والخبرة والدراسة العملية مع الأطباء فعقب الدكتور عبد الخالق على كلام أحمد بقوله : كلامك يبدو معقولاً لكنه غير مقبول في مجال الطب فالتجربة والخبرة في مجالات الطب لا تكفي، هناك أمراض وهناك مضاعفات أمراض وهناك أدوية وحدوث مضاعفات من الأدوية في بعض الحالات فماذا تصنع حيالها؟! فقال أحمد : نجتهد والشفاء من الله فازداد الدكتور عبد الخالق حدة في معارضته وقال : هذا طب ليس تجارب زراعية في الأرض، التجارب في جسم الإنسان وصحته لا تقبل إلا في المستشفيات العالمية ومن قبل الأطباء المشاهير المعترف لهم بالتفوق في مجال الطب، قد يموت مريض بسببك، قد تتسبب في إحداث مرض لإنسان وأنت لا تدري! فشكره الدكتور المجرب أحمد على إرشاداته باللغة الإنجليزية وانصرف، فالتفت الدكتور عبد الخالق وقال لرجل دخل عيادته لتوه : يا أخي سبحان الله، هذه المدينة فيها عدد من المتطببين، قال الزائر : المدينة واسعة يا دكتور والأطباء الحكوميون دون حاجة السكان، فلو أن الحكومة وضعت فيها عدد أكبر من الأطباء استغنى الناس بهم عن هؤلاء المرتزقة ! ولعلمك يا دكتور فإن المستشفى الحكومي لا يفتح إلا صباحاً حتى وقت الغداء، ولعلمك بعد يا دكتور المستشفى بعيد على الناس وليس كل الناس لديهم سيارات،

والناس فيهم من لا يعرف الدكتور الحقيقي والدكتور المحتال، فارتاح الدكتور لكلام الرجل ووعد بأنه سوف يطالب وزارة الصحة بإرسال عدد من الأطباء والطبيبات في جميع التخصصات الطبية، فعقب الرجل بقوله : الله يرضى عليك يا دكتور، أنت رجل طيب. ثم قام الدكتور بفحص الرجل وقدم له العلاج اللازم فناوله عشرين ريالاً مقابل الفحص والدواء فرفض الدكتور تناولها وقال له : الدواء من الحكومة وأنا متبرع بفحصك، فدعا له الرجل بخير وانصرف. واستمر الدكتور عبد الخالق في عمله الحكومي وعيادته يجمع المال نقوداً فضية ويضعها في صفائح «التنك» يرسلها للبنك في جدة صفيحة صفيحة. وفي يوم من الأيام قال لأحد الخدم بأنه يريد أن يصلي الجمعة كل أسبوع في جامع من جوامع بريدة لأجل التعرف على سكان المدينة، ويمكن أن يكون التعرف في مصلحة الجميع، لأجل أن يعرفوا أنه وصل إلى مدينتهم دكتور جديد، وبدأ الدكتور يؤدي صلاة الجمعة في جوامع بريدة فكلمة جامع لا تعني كل مسجد وانما يراد بها المسجد الذي تصلى به صلاة الجمعة. وبدأ يؤدي صلاة الجمعة في جوامع بريدة ينتقل كل يوم جمعة إلى جامع، ليتعرف على سكان المدينة فإنه بعد نهاية الصلاة يقف عند سيارته أمام باب المسجد منذ أن يبدأ المصلون بالانصراف، ليراه الناس ويعرفوه، وخادم من خدم المستشفى يقف قريباً منه فإذا رأى أحداً قريباً منه قال له هذا الدكتور الجديد المدير عبد الخالق فيحييه بعض المصلين، وبعضهم يدعوه ليشرب القهوة والبعض يكتفي بمصافحته والبعض يلقي نظرة عليه وكفى والدكتور يبدي شكره لمن يدعوه لبيته ويبدي شكره لمن يكتفي بالسلام عليه، ثم ينصرف إلى بيته. وأصبح سكان المدينة على مر الأيام كلهم يعرفون الدكتور عبد الخالق الذي يوزع وقته لخدمة المرضى في

المستشفى الحكومي وفي عيادته وصار وقته مزحوماً بالعمل وجمع القطع الفضية، وفي يوم من الأيام جاء إليه رجل فقير وقال له: إنه يريد من الدكتور أن يكشف عليه ويعالجه وكانت زيارة الفقير له في عيادته بعد عصر يوم من الأيام الحافلة بالعمل المضني وجمع النقود، فسأله الدكتور عن النقود التي معه؟ فقال : معه ثلاثة ريالات فضية فأجابه الدكتور بقوله : أضربك إبرة بثلاثة ريالات ووافق المريض فحقنه مع الوريد بإبرة أفرغ منها الدواء الغير كافي وأخذ منه ثلاثة ريالات وانصرف المريض الفقير، الذي جاء من البادية، ولما انصرف اعترض حضري زائر على عمل الدكتور قائلاً وهل تفيده هذه الإبرة التي أعطيت لجسمه؟ أما كان من الأجدى والبراءة للذمة أن تدله على المستشفى الحكومي وتعالجه فيه وتترك له الثلاثة ريالات ينتفع بها، فرد الدكتور عبد الخالق : هذا الرجل من البادية شاب قوي الجسم ولا يبدو عليه أثر الفقر كما تظن ولكنه محتال يريد أن أعالجه بثلاثة ريالات وربما يأتي غداً يحمل نقوداً من قيمة الجمال التي باعها في سوق بريدة، ولو أنني تحققت من فقره لعالجته مجاناً أو حولته للمستشفى الحكومي، واستدرك الدكتور وضحك ضحكة مفتعلة وقال : إننا سوف نستغل هذه البلاد ثلاثين سنة حتى يتعلم أهلها، ولو التمسنا عذر الفقر للمرضى ربما يتحول معظمهم إلى فقراء خاصة البدو، ولكن المصلحة تقتضي أن يدفع المريض ثمن الدواء لكي يحرص على استعماله والتقيد بنصيحة الدكتور. ثم أمر الدكتور بقفل باب العيادة والاعتذار للمرضى بانشغال الدكتور وأمر الخادم بتحضير القهوة التركية والشاي والتفت إلى الزائر قائلاً نريد أن نجلس معك ونستريح من عناء المرضى وقام إلى الغسالة ينظف يديه وقال وهو أمام الغسالة إن مدينة بريدة هي المدينة الوحيدة

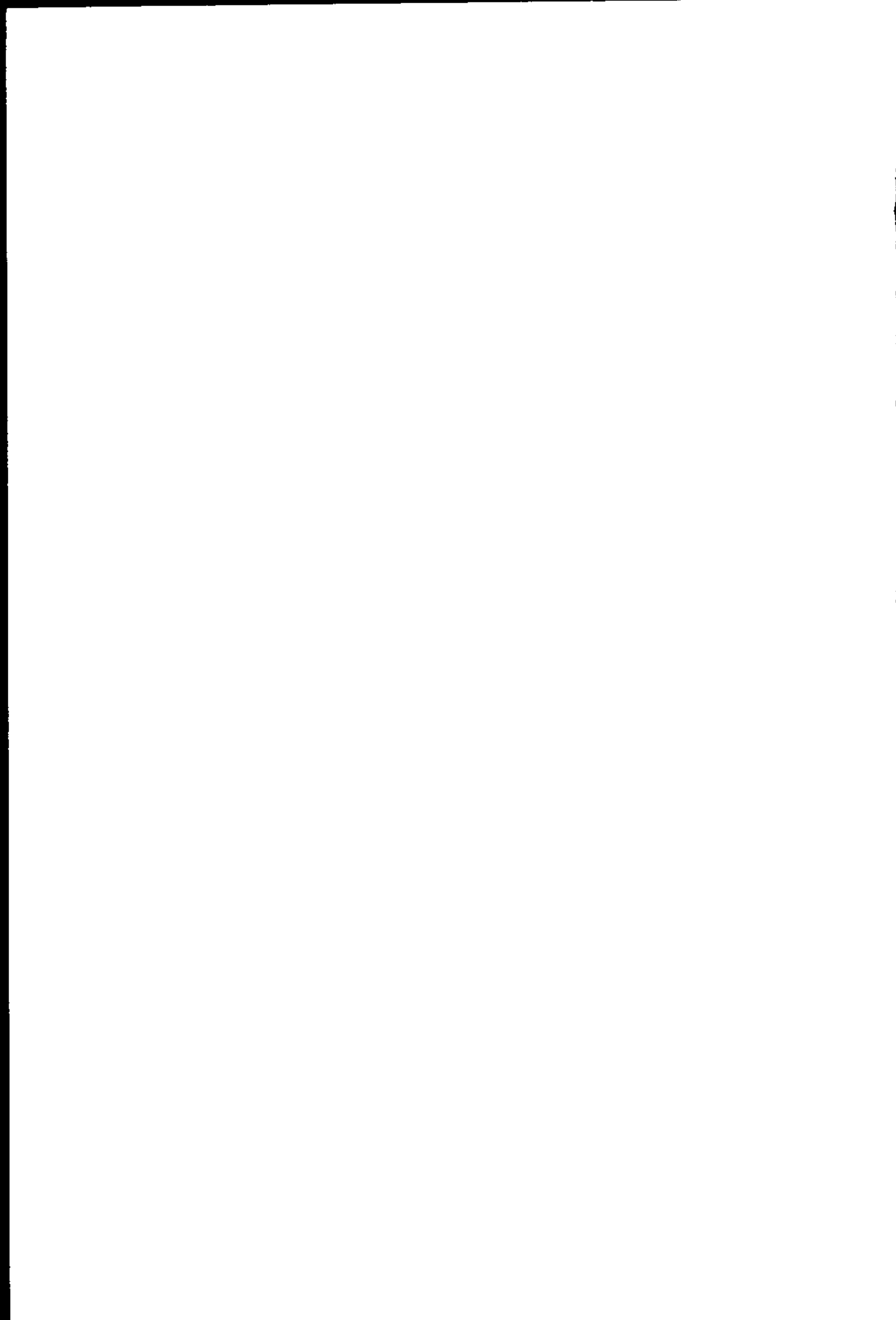
في المملكة توجد فيها شبكة مياه عذبة تعم المدينة، فقال الزائر : هذا فضل من الله سبحانه، يستحق الشكر والطاعة. وجلس الدكتور إلى جوار الزائر ليدلل على قناعته من المال، متناسياً الثلاثة ريالات التي تناولها من البدوي ضامناً لنفسه مراجعة المرضى الذين انصرفوا دون مقابلته في وقت لاحق. وبدأ في حديث مع الزائر سأل عن عدد سكان المدينة وعن عدد تلاميذ المدارس الحكومية والمدارس الأهلية. وسأل عن عدد سكان مقاطعة القصيم وسأل عن عدد بلدان القصيم؟ والزائر يجيبه عن أسئلته، واعترض على إقامة وحدة صحية مدرسية في مدينة بريدة وقال إنها الوحدة الصحية في المملكة التي لا يوجد ما يماثلها في المدن الأخرى وقال الزائر : توجد وحدات صحية في المدن الأخرى الكبرى تابعة للتعليم، ولكن لماذا تعترض على وجود الوحدة الصحية ؟ فقال الدكتور : خدمة المرضى من أعمال وزارة الصحة، ولكن الزائر قال له : في بلادك توجد وحدات صحية فلماذا الاعتراض على وجودها في بلادنا؟ وزاد الزائر في كلامه بقوله : إن طبيب الوحدة التابع للمعارف لا يستقبل غير تلاميذ المدارس وليست له عيادة خاصة، إنه يا دكتور غير منافس! وأمضى الدكتور أربع سنوات في بريدة عرف التجار والموظفين وكبار الموظفين ولكنه كان لا يأخذ نقوداً من بعض التجار الذين لهم نفوذ في المدينة ولكنه في نفس الوقت لم يكن يقدم لأطفالهم الذين يقدمون للمعالجة في عيادته علاجاً نافعاً فقد كان يغشهم، كان إذا زاره في عيادته أحد من هؤلاء التجار يحمل طفلاً عمد إلى حقنه بماء مقطر، وقد اكتشف هذا العمل السيئ عندما ذهب تاجر كان يعتمد على جاهه ولا يعطي الدكتور نقوداً فيوهمه الدكتور أنه يقدم العلاج لطفله في حين أنه لا يقدم للطفل إلا الماء المقطر يحقنه في جسمه، وقد اكتشف هذا في

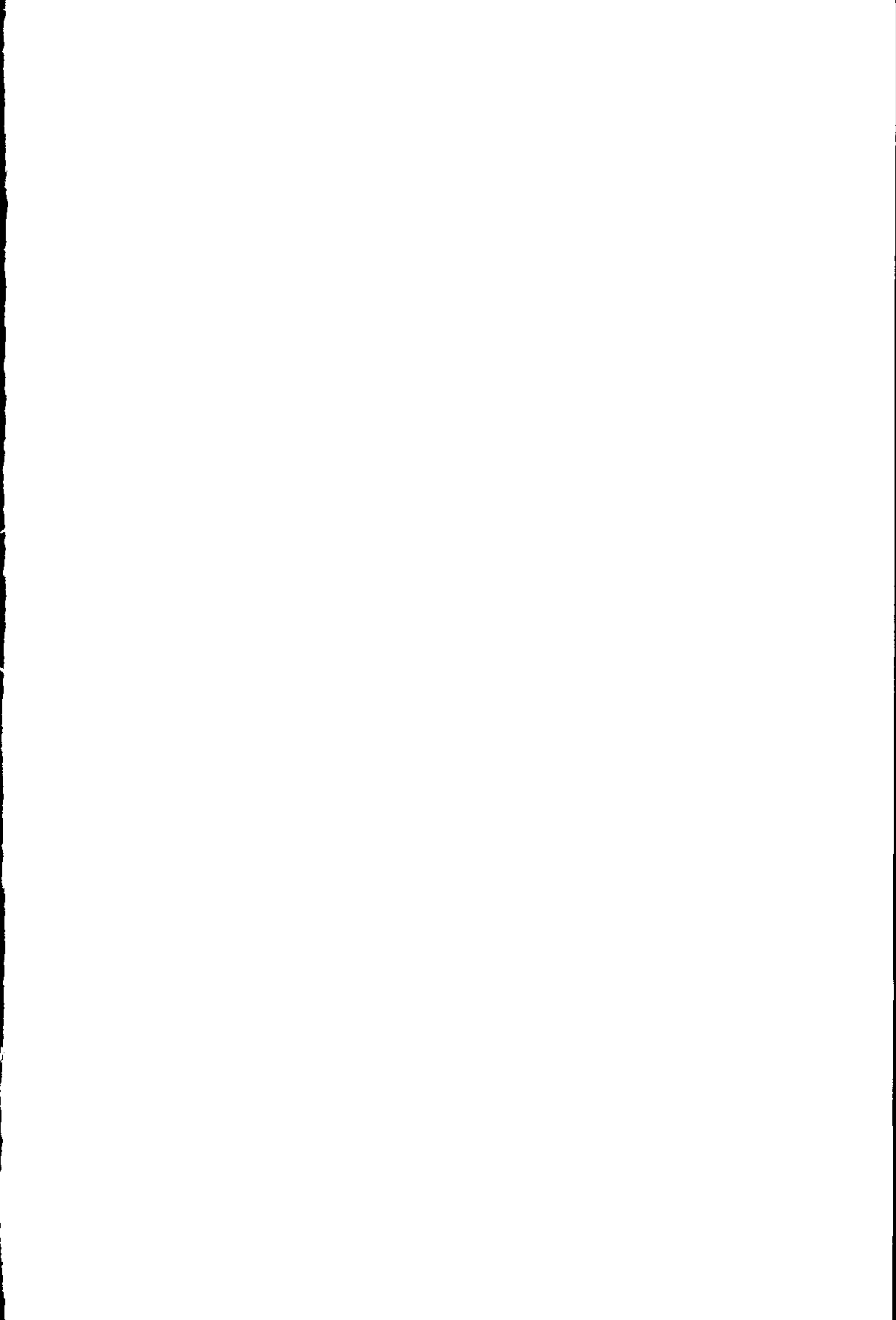
مستشفى لبناني حينما ساءت صحة الطفل وذهب به والده إلى لبنان في عام ١٣٧٥هـ لعلاجه فقيل له : إن الحقن التي كانت تعطى لولدك ماء مقطر فأدرك التاجر أن الدكتور غش طفله يوم رفض أخذ النقود، وخان الأمانة الطبية التي تقتضيه الإخلاص في عمله، واستمر الدكتور عبد الخالق في عمله في مدينة بريدة خمس سنوات والناس يتحدثون عن غشه للطفل ولكنهم يرجعون ذلك إلى بخل والده بالنقود ويعتقدون أن الدكتور ينصح في عمله إذا أخذ أجرته وثمن الدواء.

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

استمر الدكتور منهمكاً في عمله المضني بين العيادة والعمل في المستشفى الحكومي يبعد عن مزاحمته بنفوذه الرسمي كل طبيب أو متطبب. وفي يوم من الأيام بلغه أن طبيب أسنان أخذ مكافأة من موظف على علاج ضرسه فثار الدكتور عبد الخالق وأبرق لوزارة الصحة يطلب نقل هذا الطبيب فنقل على الفور، فعل هذا وهو لا يستفيد من طب الأسنان لأنه لا يدخل في اختصاصه ولا يعرف عنه شيئاً من العلم، ولكنها الأنانية والاحتكار، أما المتطببون فقد اتجهوا إلى تلقيح الأطفال ضد الجدري واتجه البعض منهم إلى بيع الأدوية بموجب وصفات يكتبها الأطباء بعد أن اقتنع الدكتور عبد الخالق بحصر عملهم في بيع الأدوية، أما التلقيح ضد الجدري فقد بقي عملاً مستتراً لم يعلم به الدكتور الماهر الشاطر، وتطوع الدكتور عبد الخالق لإرشاد ومساعدة تجار الأدوية على الحصول على الأدوية بطريقة سهلة ميسرة لا تكلفهم مشقة، وترفع الدكتور إلى وظيفة كبيرة أعطته حق الإشراف على الجهاز الصحي في مقاطعة القصيم وزاد راتبه، ولكنه كان يعتمد على عيادته في الحصول على المال أكثر من اعتماده على وظيفته الحكومية. وفي أواخر عام

١٣٧٥هـ نقل الدكتور من عمله في بريدة إلى العمل في الطائف فانتقل كارهاً لمارسة عمله الجديد وفي أوائل عام ١٣٧٦هـ مرض الدكتور عبد الخالق مرضاً عضالاً وتحول دمه إلى ماء بقدرة الله ومات مخلفاً وراءه صفائح الفضة التي جمعها من المواطنين دون أن ينتفع بها والتي كان قد اكتنزها بإيداعها في البنك.





ضيف الشرطة ؟

في ضحى يوم ١٠ من شهر رجب سنة ١٣٧٥هـ وصل إلى مركز حاج في الحدود الشمالية السعودية رجل أسمر اللون طويل القامة مجهد من التعب والجوع ينتعل جوربين باليين، ويلبس ثوباً من الكتان الأبيض، ونزل في ضيافة شرطة المركز يومه وليلته ؛ قدم له رجال الحكومة في المركز الطعام والماء ظانين أنه من الرعاة يبحث عن بعير ضال. ومهما كانت نظرتهم إليه فهو ضيف والعرب تكرم الضيف سجية وخلقاً وفطرة. وفي صباح اليوم التالي دعاه موظفوا المركز لأكل طعام الإفطار معهم فأكل دون أن يفصح عن غرضه أو وجهته، وانتظروا منه أن ينصرف لمهمته ولكنه لم يفعل، وخرج من غرفة المركز المخصصة للطعام واستظل في ظل بناية المركز وهنا بدأ موظفوا المركز يبحثون أمره، سأل جندي رئيسه عن هذا الرجل الذي يبدو عليه التعب والجوع والفقر من أين جاء وإلى أين يقصد فنفى الرئيس علمه عنه ودخل في الحديث موظف ثالث جندي فقال: آنا من وقت شفته ويدي على زناد الرشاش ؟ ألا نسأله ؟ فذهب إليه فقال : ما اسمك ؟ قال : محمد عبدالله زهراني. فقال له: من أين جئت ؟ قال: من فلسطين. وإلي أين تذهب ؟ قال : إلى المملكة العربية السعودية. فقال له الجندي : أنت في المملكة العربية السعودية. وبدأت الحيرة في أمر الرجل تأخذ طريقها إلى ذهن الجندي السعودي الذي كان يضع يده على مسدس يخفيه في جيبه، فركض الجندي إلى رئيس المركز وأخبره بكلام الرجل الغريب البائس. فطلبه المأمور فأحضر إليه، وسأله عن جوازه ؟ فأجاب بأنه لا يحمل جواز سفر سعودي، وأنه بدون جواز. فسأله هل لديه هوية فنفى ؟ فبدأ التحقيق معه فأجاب بأن

اسمه محمد عبد الله الزهراني. ويسؤاله عن مجيئه من فلسطين قال : أريد أهلي في بلاد زهران. ويسؤاله عن ذهابه أصلاً إلى فلسطين قال : أنا خرجت من مكة المكرمة معاون سائق سيارة لوري إلى تبوك تبع إمارة تبوك، ويسؤاله عن العام الذي وصل فيه إلى تبوك، قال : عام ١٣٥٣هـ وأن أمير تبوك وقتها عبد الله السديري. وسئل عن كيفية انتقاله من المملكة العربية السعودية إلى الخارج فقال : توجهت من تبوك إلى الأردن ثم دخلت فلسطين واشتغلت بالزراعة في فلسطين وبقيت متنقلاً بين فلسطين ومصر أعمل في الزراعة. وكنت في فلسطين وقت إعلان قيام عصابة الصهاينة في فلسطين. فذهبت إلى مصر فأعادوني المصريون إلى فلسطين لأنني انتقلت من فلسطين إلى مصر ولأنني لا أحمل جواز سفر بقيت في فلسطين اشتغل بالزراعة عاملاً بسيطاً بأجر يومي قليل، وكنت أبقى معظم الأيام بدون عمل ولكنني أتنقل بين المزارع أبحث عن العمل والراحة، وأخيراً قررت العودة إلى الأراضي العربية السعودية، وهنا قاطعه مأمور المركز ورئيس الشرطة فيه بقوله: هل جئت إلى السعودية طائعاً مختاراً من نفسك؟ أم أن جيش العصابة الصهوينية قذف بك، فصمت الرجل ولم يجب على هذا السؤال. فألح عليه مأمور المركز بطلب الإجابة فقال : الحكومة السعودية عادلة، ما تظلم أحد. ونطق الإجابة بلهجة مصرية. فسأله المأمور لماذا يتكلم بلهجة مصرية وهو يقول إنه سعودي؟! فرد : أنا عشت في مصر مع الفلاحين فكسبت كلامهم وتعودت عليه. وكان الرجل مما تناوله من طعام وشراب ومع الراحة التي أخذها في الليل يبدو متعباً ذاهل التفكير، ولكن مع تردي حالته الجسمية فإنه يبدو غير خائف لولا ما يتصف به من ذهول التفكير ؟ وهل يخاف من اطمأن إلى عدل الحكومة السعودية، فقرر مأمور المركز نقله مخفوراً

إلى مفتشية الحدود الشمالية. فبعث السيارة ولكنه لم يكن مقيداً، فالمأمور مطمئن إلى أنه لن يعود هارباً إلى فلسطين المحتلة وهو الهارب من جحيم إسرائيل فيها، أو المسوق منها راغباً أو راهباً، علاوة على أنه لا يستطيع الجري والمشي لمسافة طويلة، فالرجل لم ينهكه السير من الأردن أو فلسطين ولكن يبدو أن الرجل كان سجيناً في إسرائيل أو في الأردن من يدري ؟ أو كان سجيناً في مصر لمدة طويلة من يدري ! بهذا الكلام أقنع المأمور الجندي المرافق للسجين ضيف الشرطة بأنه لا حاجة لقيد الرجل لأنه عاجز عن الفرار، ولأنه لا يريد الخروج من هذه الأرض التي لجأ إليها أو عاد إليها. ووصلت السيارة التي تحمل السجين ومرافقه إلى قصر إمارة القريات ومفتشية الحدود الشمالية، فأودع السجين السجن وقت وصوله في ذمة التحقيق معه. وبعد العصر بدأ معه التحقيق موظف الإمارة حيث اشتبه أن يكون «جاسوساً إسرائيلياً» وأعد عنه تقريراً لوزارة الداخلية، فتقرر نقله إلى بلاد زهران تحت الخفارة وصدر الأمر بالتعريف عليه في بلاد زهران، ووصل إلى مكة ثم نقل إلى بلاد زهران وعرض على عدد من الأهالي فلم يعرفه أحد ولم يعرف هو أحداً. هل فقد الرجل ذاكرته هل سافر إلى مكة وهو طفل؟، هل ماتت أسرته؟ كانت هذه الأسئلة تتردد بين أفراد قبيلة زهران التي لم يعرفه منها أحد بعد وصوله إلى بلادها. كان الرجل يحفظ اسمه محمد عبد الله الزهراني وأنه وصل إلى مكة وهو صغير السن واشتغل في مكة المكرمة، وكان إذا ارتبك عن الرد على سؤال من يسأله من الموظفين ورجال الشرطة يقول: الحكومة السعودية عادلة سيدي، وكانت كلمات الحكومة السعودية عادلة جملة لازمة يرددها الرجل كثيراً. ولما تأكد الموظفون في الأمن أنه لن يهتدي إلى أهله في زهران ولم يتعرف عليه أحد وظل الرجل مشكوكاً

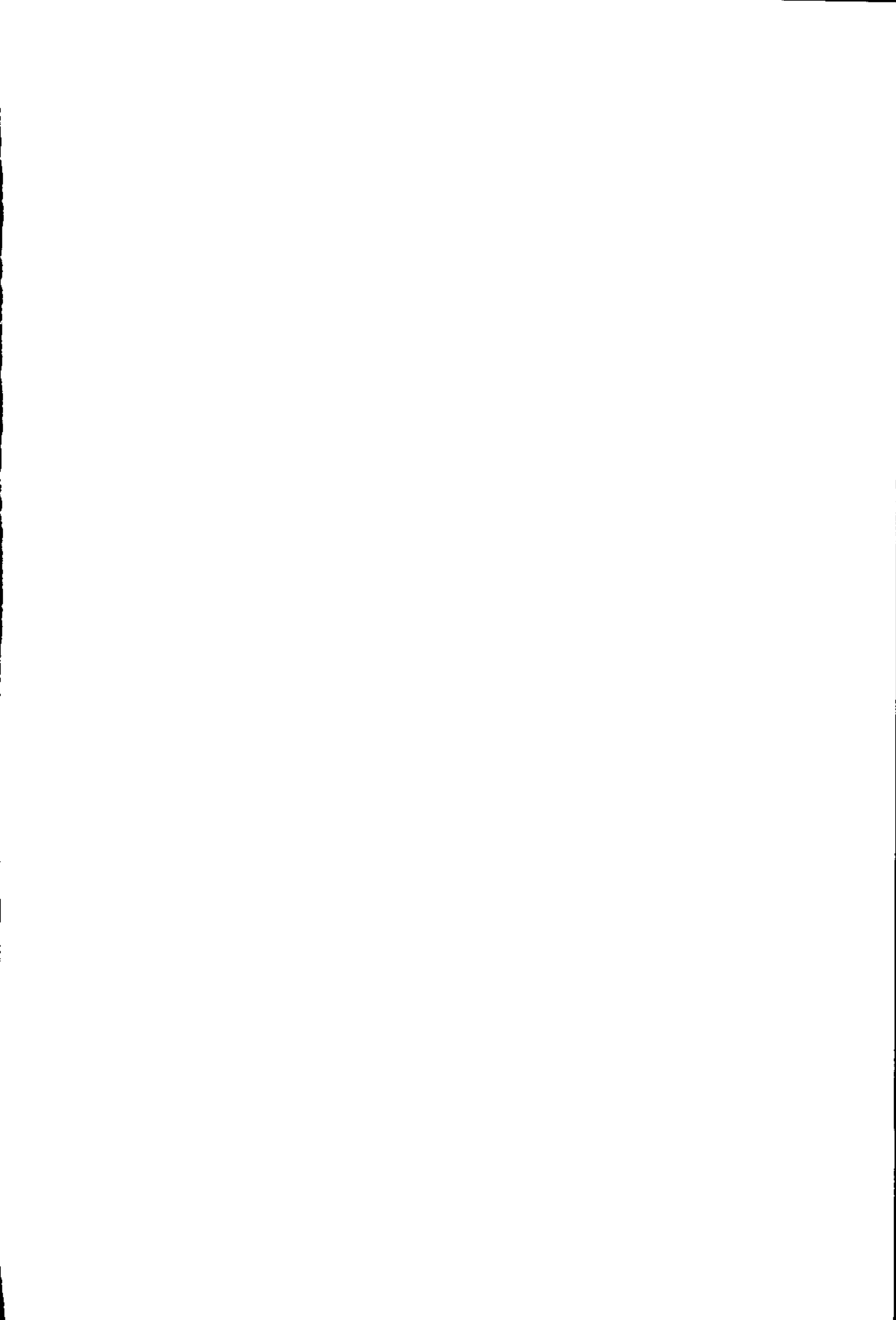
فيه وفي سلامة نيته فيخشى أن يكون جاسوساً إسرائيلياً لذلك فقد أعيد إلى مكة ومنها إلى تبوك، والرجل يذكر أنه مسلم ويصلي وهذا ما جعله يدخل إلى مكة المكرمة ولكن الأمر فيه ملتبس غاية الالتباس وأعيد من تبوك إلى القريات يوم ١٣٧٦/٦/١٥هـ في سيارة حكومية، وفي الطريق بين تبوك والقريات سأله أحد الموظفين الحكوميين الموجودين في السيارة عن أسباب سجنه؟ فقال : اسأل الجندي المرافق. وبسؤال الجندي المرافق عن أسباب سجنه قال : هذا مسك في مركز حاج في العام الماضي واشتبه في أمره فهو يزعم أنه سعودي زهراني ولكن زهران لم يعرفه في بلادها أحد وهو لم يعرف في بلادها أحداً. فأعيد ليأخذ طريقه إلى فلسطين. وفي استراحة بالطريق اتجه الموظف إلى السجين فسأله عن اسمه فقال محمد عبد الله الزهراني. وبسؤاله أسئلة مشابهة لما ألقي عليه من أسئلة في مركز حاج عند دخوله، عن مجيئه إلى فلسطين قال : ذهبت من تبوك وأنا صبي وتجولت في فلسطين اشتغل بالزراعة وبسؤاله عمن يعرف في تبوك وقت وجوده فيها للمرة الأولى قال: الأمير عبد الله السديري. وطلب منه الموظف أن يقرأ الفاتحة فقرأها بسرعة، وكان سريع الكلام سريع القراءة لدرجة مخالفة لطريقة سكان البلاد العربية السعودية في الكلام وفي قراءة القرآن، كان الرجل يبدو فقيراً ليس معه متاع، وكان يبدو عليه الذل على طريقة مخالفة لأخلاق العرب في المملكة العربية السعودية، ولكن من الجائز أن يكون سجنه وما تعرض له في السجون قد أثرت على خلقه وكان إذا سار يسير منحني الظهر، ويحتمل أنه تعرض للضرب في المملكة العربية السعودية أو في الأردن أو فلسطين أو مصر، والذي غاب عن الأذهان وكان مهماً في قضية الرجل احتمال كونه سجيناً لمدة طويلة في سجن إسرائيل

وقد هرب من السجن أو طردته إسرائيل بعد الإفراج عنه، وكان الرجل مستمراً على عادته في قوله: «الحكومة السعودية عادلة» وكان الموظفون السعوديون بين كراهية الرجل كجاسوس إسرائيلي وبين الإشفاق عليه والرحمة له كرجل سعودي قذف به العوز والجهل إلى فلسطين وضيع أهله وبلاده فعاد إلى بلاده وعد غريباً عليها لا يعرفه أحد. ووصلت السيارة التي تحمله إلى قصر القريات وما إن أدخل السجن حتى أدرك أن هذا مكانه في العام الماضي، ووجد بعض رفاق السجن في انتظاره فعرفوه ولكنه لم يكلمهم فهو قليل الكلام واكتفى بانحناءة ووضع يده على رأسه محيياً. فاقترب منه السجناء ولكن الرجل طرح جسمه على الأرض يطلب النوم، ويظهر أن الرجل كان متعباً وكان قد أمن على حياته لدرجة أغرته بالنوم. فهل كان قبل خائفاً؟ وحول باب السجن وقف الموظفون والجنود يتناجون في أمره ورفع أحدهم صوته قائلاً من المحتمل أن يكون جاسوساً يهودياً وقد درسه اليهود وأعطوه معلومات عن هذه البلاد مثل كون عبد الله السديري أميراً لتبوك من قبل مجيء السيارات إلى تبوك. وقال غيره ربما يكون الرجل سعودياً فقيراً مشرداً ضعيف الإرادة! وفي الغد نقلته سيارة تحت حراسة عدد من الجنود فأبعدوه خارج الحدود بعد أن فتشوه فلم يجدوا معه أي شيء فلا يملك الرجل غير ثوب يستر جسمه المتعب المتهالك. وبقي الجنود يراقبون الرجل وهو يسير مرة يأخذ الطريق الغربي ومرة يأخذ الطريق الشرقي، وتساءل أحد الجنود مع رفاقه هل الرجل يريد تضليلهم أم أن الرجل يسير بلا عقل يقوده إلى حيث يريد؟ فرد عليه زميل وقال : إنه يبحث عن خط سيارات يسلكه لأية جهة فالرجل لا يعرف أين يذهب ولكنه يريد طريقاً يوصله إلى أرض مسكونة. وقال آخر إن علينا ألا يعود إلى بلادنا فإن عاد ألقم

رصاصاً، فصوت الرصاص هو المنطق الذي يعرفه الإسرائيليون ويكبح جماحهم ويحمي بلادنا من الجاسوسية، فعقب جندي على قولهم اتقوا الله يمكن أن الرجل ما هو بمتنكر يمكن أنه سعودي وغلبت المروءة نفس رئيس الحراس فقال مادام هذا كلامك ياخوينا لنلحق بالرجل الفقير ونقدم له طعاماً فلحق به الحراس على سيارتهم ولما وصلوا إليه وقف ينظر إليهم ذاهلاً، ترى هل أخافوه . هل توقع أنهم سوف يقتلونه؟ وتقدم إليه رئيس الحراس وقدم إليه لفافة خبز وركض جندي واستل بطانية من فراشه وقدمها إلى ضيف الشرطة فأخذ الخبز والبطانية وشكرهم ومضى لسبيله الذي لم يهتد إليه، فقد كان يبحث عن الطريق المسلوك، وعاد الحراس بسيارتهم دون أن يلتفتوا للرجل الذي لا يعرف الطريق.

١٣٧٦/٧/٢٥هـ





وفـــاء

«عزمان» شاب نشأ في وهطان ضاحية صغيرة قريبة من بريدة تقع في الجنوب الشرقي منها وتعلم تعليماً بسيطاً في كتاب القرية في طفولته، وكان يشتغل في الفلاحة مع والده عبد الرحمن ؛ لاحظ عزمان وأدرك أن الملوحة بدأت تتسرب إلى ماء بئرهم الزراعية، فنصح والده أن يترك الزراعة وينتقل إلى مدينة بريدة ويعمل في التجارة. فقال والده : يا بني أنا فلاح لا أحسن الاشتغال بالتجارة قال الابن عزمان نشتغل مع الناس في بناء البيوت. قال الأب يا ولدي نحن هنا أعزة كرام على أنفسنا وعلى الناس، أتريد منا أن نكون عمالاً عند الناس ؟! فقال الولد عزمان : العمل ما فيه نقيصة ولا يعاب الإنسان بالعمل سواء كان بالأجرة عند الناس أو كان في الفلاحة الخاصة، وتنهد أبوعزمان وترك المجلس يسرع في خطاه إلى البركة التي امتلأت بالماء ليفجره على النخل فترتوي وتأتي بالثمار ونماء الثمار والخير الوفير. ولما أدرك عزمان أن أباه انصرف إلى سقي النخل شق عليه أن يتخلف عنه ويتركه يعمل عملاً مجهداً بمفرده فلحق به وأخذ منه المسحاة وبدأ يعدل الماء ويصرفه على النخل، ولكن الوالد لم يألف الراحة، ولا هو يميل إليها، فمشى خطوات وتناول المنجل واتجه إلى حقل القت يحصد علفاً للإبل والبقر والغنم، وبدأ يحصد نشيطاً كعادته، ثم لحقت أم البنين وصارت تعاونه وبدأت تمازحه بقولها : يا أباعزمان أظنك شبت فهل تسابقني في الحصاد أينا أكثر حصاداً فقال لها ومن يغلب خويه ما هي جائزته؟ قالت: مكافأته العافية. فقال عبد الرحمن العافية من الله ما هي منك، وضحكت أم عزمان ضحكة سمعها عزمان الذي أسرع يشارك أمه فرحتها

بجودة نمو القت فوجد أباه وأمه منهمكين بحصاد القت فرحين بعملهما فتطلع إليه أبوه وقال : هات يا عزمان علومك ولم يدر عزمان ما يقوله، فأردف أبوه قائلاً : القت هذا من فوائد العمل بالفلاحة فكم تقدر قيمة القت الذي نقدمه للإبل والبقر والغنم يومياً فرد عزمان بثلاثة أريل. قال أبوه وكم تقدر أجرتي فيما لو اشتغلت عاملاً عند أهل بريدة ؟ قال الابن أجرتك في اليوم ريال! فأضاف أبوه : ثلاثة الأريل أفضل أم الريال الواحد ؟ فرد الابن الثلاثة أفضل. ولكن لا تنسى أن الثلاثة نتيجة عمل أسرة كاملة وجهد البعارين التي تخرج الماء من البئر، وهنا تدخلت الأم متسائلة بقولها : أظن أن بينكما علماً لا أعلمه تجحدونه عني ! فقال عبد الرحمن أبوعزمان : نعم، هذا عزمان يشير عليّ بترك الفلاحة وننتقل جميعاً إلى الديرة نشتغل عند الناس. فقالت الأم : هذا ليس صائباً الواحد يعمل في فلاحته أفضل من أن يشتغل عند الناس. قال أبوعزمان ناقداً هذه تربيتك ياأم عزمان! وهذا ولدك، فابتسمت الأم وقالت : نعم، إنها تربيتي إنه ولد بار بك يحبك ويبحث عن راحتك، أنا ما علمته كراهية الفلاحة، فأنا فلاحة وأبي فلاح وأمي فلاحة، وأجدادي كلهم فلاحون، ولكن هذا رأي جاء به الولد من عنده لا علاقة لي به وعاد الولد مسرعاً إلى سقي النخل والمزروعات المحيطة بالنخل تداعب أوراقها جريد النخل وتستظل بظلها، تحنو عليها في الأيام شديدة الحرارة فتحجب عنها حرارة الشمس وتخففها، فقالت الأم الزوجة لزوجها : إن عزمان يحب الفلاحة انظر إليه يركض إلى عمله، واستمرت أسرة عبد الرحمن تسير معه في عمل الفلاحة. ونقص هطول الأمطار، واستمر انخفاض نسبة المطر سنين متعاقبة فزادت ملوحة الماء وأدركت أباعزمان الشيخوخة فعجز عن العمل فترك الفلاحة وأمرها لابنه الذي بلغ

الخامسة والعشرين من عمره دون أن يتزوج متفرغاً لعمل الفلاحة، وبدأ يلح على والده بالانتقال إلى الديرة - إلى بريدة - فقال له أبوه : على رغبتك انتقل إلى الديرة. وذهب عزمان فاستأجر داراً جنوبي مدينة بريدة ثم بدأ في بيع الإبل ونقل البقر والغنم الموجودة في الفلاحة إلى المدينة كما نقل متاعهم وأثاث البيت إلى المدينة، ثم نقل والده ووالدته وإخوانه إلى البيت الجديد. وقبل أن يخرج عبد الرحمن من باب حائط نخله التفت يلقي نظرة وداع وإكبار وإشفاق على نخله التي بدأت تصفر أوراق فروعها من ضعف سقيها بالماء، ومن ملوحة الماء، ومن حرمانها من الماء منذ مدة ليست قصيرة. تركت الأسرة نخلها وأمر فلاحتها ووصلت إلى الدار الجديدة، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة لشأنه في البيت يرتب وينظم امتعته في المنزل الذي اختاره، ما أضيق الدار بعد الفلاحة جملة باكية نطقها عبد الرحمن بصوت سمعته الأم. وخرج الابن بعد العصر يبحث عن عمل في أسواق بريدة التجارية فوجد عزمان عملاً مع البنائين في بناء دار بأجرة يومية قدرها ريال فضة ينقل الطين من مكان إلى آخر من شروق الشمس إلى آذان الظهر. ووصف له صاحب العمل مكان العمل فعاد عزمان إلى البيت وأمضى بقية يومه وليلته مع أهله. وفي فجر اليوم التالي توجه إلى العمل نشيطاً فدخل بيت صاحب العمل فسلم وجلس ثم تجمع العمال وأستاذ البناء فقدم التمر والقهوة والشاي فأكل البعض تمراً وشرب قهوة والبعض من العمال شرب قهوة وشاياً والبعض أكل تمراً وشرب قهوة وشاياً ؛ وفرغوا من الإفطار البسيط الخفيف ثم توجهوا إلى عملهم يتقدمهم معلم البناء الأستاذ، الذي وزع العمال في أماكن عملهم كما يوزع القائد جنده، وكان نصيب عزمان من العمل نقل الماء لخلط الطين. وبعد خلط الطين نقل الطين

على رأسه إلى حيث يعمل المعلم في البناء. وبدأ العمل في الماء ثم في الطين حتى الضحى حيث قدم طعام الغداء المكون من الجريش والتمر واللبن تحلق حوله العمال وكان صاحب العمل يأكل معهم فعجب عزمان من مشاركة التاجر صاحب العمل للعمال في طعامهم، وبعد أكل الطعام عادوا إلى أعمالهم وبينما هم يعملون أحضرت لهم قهوة وشاي هدية من أحد الجيران فشربوها واستمروا في عملهم وعزمان يقوم بعمله نشيطاً مع البنائين يحمل الطين على رأسه في وعاء من خوص النخل. وأذن لصلاة الظهر فترك العمال عملهم وبدأوا يستعدون بالوضوء للصلاة، ثم أدوا صلاة الظهر في المسجد المجاور لبيت التاجر، ثم اتجهوا إلى بيت التاجر وشربوا القهوة والشاي، ثم انصرفوا قسم منهم أخذ طريقه إلى عمل الفترة المسائية لدى تاجر آخر وقسم منهم اتجه إلى بيته للراحة وقضاء حاجة أهله، وسأل عزمان أحد العمال في الطريق أين يذهب العمال فرد عليه إن العمل فترتين فترة صباحية حتى آذان الظهر وفترة مسائية من بعد صلاة الظهر إلى آذان المغرب فذهب عزمان إلى بيته وفي يده ريال تسلمه من صاحب العمل أجرة عمله ذلك اليوم بعد أن قال له صاحب العمل : تصبح باكراً إن شاء الله. وقبل أن يصل عزمان إلى البيت طرأت عليه فكرة شراء لحم بالريال لأهله، فمر على سوق اللحم في طريقه واشترى لحماً بالريال وحمله إلى البيت، ودخل على أهله وكان والده يرقبه عند المدخل فسلم عزمان فرحب به أبوه وسأله عن حاله في العمل فرد بأنه كان في حال طيبة وأن العمل غير شاق والطعام الذي قدم للعمال طيب واللبن متوفر والقهوة والشاي متوفران، وقال عزمان والله يا أبي إنهم أناس طيبون المعزب والأستاذ والعمال، أنا ناسبني العمل، وجاءت أم عزمان وقبل أن تتناول اللحمة من ولدها استدارت حوله تنظر

إلى ملابسه فإذا هي ملطخة بأثر الطين الذي كان يعمل في نقله وإذا بوجه ولدها مغبر شاحب من أثر التراب والتعب فقالت : هذا الشغل الزين ياعزمان ؟ هذا الذي أنت تريد ؟ فرد عزمان أنا أريد راحتكم والذي ما يغبر شاربه ما يدسمه أنا ما تعبت وحصلت على ريال اشتريت به لحمة تكفيكم يومين إلا لأجل راحتكم، وتناولت الأم اللحمة وانتقلت إلى المطبخ فسلمتها لابنتها الكبرى قائلة هذا من كسب عزمان الله يعطيه العافية، وخرج عزمان إلى مسجد مجاور للبيت فنام فيه حتى آذان صلاة العصر فأيقظه المؤذن للصلاة، فصلى وعاد إلى البيت ودخل في حديث مع والده عن الفلاحة والنخل والسكري التي على البركة، وعن العمل بالبناء وأيهما أفضل وانتصر الوالد في مفاضلته إلا أن الابن استدرك بقوله : ما تركنا الفلاحة، بل هي التي تركتنا حينما تغير طعم مائها بالملوحة التي ماتت منها أشجار الخوخ والعنب والرمان، ثم بدأ النخل يضعف ثمره يا أباعزمان الله يخليك.

وفي المساء قدم طعام العشاء فأكل الوالد وولده عزمان طعاماً شهياً، حرصت الأم على إتقان تحضيره ولما تذوق الأب طعم اللحمة قال : الله يعطيك العافية ياعزمان سويتها رحت تشتري بالريال كله لحمة. هذا كسب يمينك. فقال عزمان الريال نحصل ريالاً غيره غداً إن شاء الله، فقال عبد الرحمن ليتنا في فلاحتنا، فضحك عزمان وقال : الفلاحة تركتنا وتركناها وفي الله عوض عن كل فائت. وفي الليل كان عزمان أسبق أهل البيت إلى فراشه ليأخذ راحته استعداداً لعمل الغد. وفي الصباح الباكر ذهب إلى بيت التاجر وبدأ العمل وأمضى فترة العمل مثلما أمضاها في اليوم الأول وعاد إلى بيته يحمل خضرة اشتراها ببعض المال ومعه بقية أجزاء الريال، وإذا بوالده ينتظره عند الباب فرحب به وجاءت

الآم تنظر إلى ملابس ولدها عزمان ولكنها لم تعلق على وضعه هذه المرة فقد اقتنعت أنه لا سبيل لعزمان غير السبيل الذي رضيه واختاره وسلكه للحصول على العيش الهانئ. واستمر عزمان في عمله ستة شهور ثم مرض أبوه ومات، وتزوج عزمان من بنت جارهم ونقلها إلى بيته وزوَّج أخته الكبرى ثم زوَّج أخته الصغرى، وعزمان ماضٍ في عمله في البناء ثم ماتت الأم وبقي عزمان وزوجته وأخوه في الدار. وفي يوم من الأيام قالت زوجته ياعزمان الأحسن تترك الطين والعمل في الطين وتأخذ لك فلاحة من فلائح بريدة القريبة من الديرة ونعمل فيها أحسن من عملك وأعظم ربحاً قال عزمان هذه نصيحة أبي من قبل، ولكن نحن الآن نكسب رزقنا وليس علينا نقص. قالت إذن لم لا تكون تاجراً، إننا نريد التجارة فقال عزمان التجارة في البيع والشراء ما هي بالفلاحة. فقالت : إذن تاجر مع التجار. كان أخو عزمان يسمع حواره مع زوجته عن الفلاحة. وفي اليوم التالي استأذن الصغير من أخيه الأكبر في السفر إلى الشام مع عقيل فأذن له وسافر إلى الشام. وبقي عزمان وزوجته وحدهما في الدار. وفي صباح يوم ١٣٥٠/٧/١٠ وهو يوم تحوُّل في حياة عزمان إذ لم يذهب للعمل في البناء ولكنه اتجه كما تريد زوجته إلى التجارة، أخذ طريقه إلى سوق السمن في بريدة وصار يبيع ويشتري بالسمن فكسب ثلاثة ريالات في اليوم الأول فعاد إلى البيت فرحاً بربحه الوفير يحمل معه ما يحتاجه إعداد الطعام من لحم وخضرة واستمر على وضعه يبيع ويشتري في السمن ويكسب ربحه فينفق على أسرته الصغيرة حيث صار له ولدان وبنت وتوفيت الزوجة فحزن عليها حزناً شديداً لأنها امرأة متدينة سمحة النفس رضيَّة البال محبة له ولأقاربه عطوفة على بنيها. وطلب عزمان من حماته أن تنتقل إلى بيته لخدمة أبناء بنتها فقبلت

راغبة في خدمتهم، وصارت الحماة تعد الطعام وتقوم على تربية الأطفال ونظافتهم ونظافة ملابسهم وتنتظر أن تنصحه بالزواج لكي يسألها عن معرفتها بامرأة تصلح زوجة له، ولكنها لم تفعل. إنها تتجنب ذكر زواجه خوفاً من أن يظن أنها سئمت من خدمة الأطفال أبناء بنتها. وتزوج عزمان فتاة من بريدة اسمها وفاء ونقلها إلى بيته، ثم أذن لحماته بالبقاء إن شاءت أو الانصراف إلى بيتها فانصرفت داعية له ولأولاده بخير. وأوغل عزمان في أعمال التجارة المقتصرة على السمن واشترى كمية من السمن ورأى أن يبيعها في مكة المكرمة وعند سفره استدعى حماته وفاتحها في أمر سفره، وخيَّرها بالبقاء عند أولاده أو نقل أولاد بنتها إلى دارها ؟ فأخبرته أن زوجته امرأة طيبة حسنة المعاملة للأطفال ولا خوف عليهم فهم لم يفقدوا أمهم لأنهم في كنف وعطف وحنان امرأة تخاف الله إنها وفاء كاسمها، وودعته حماته وودعت الأطفال على أمل اللقاء بهم للزيارة والزيارة لا غير. وسافر عزمان إلى مكة المكرمة فجر يوم وراء الإبل التي تحمل السمن وفي طريقه كان يمر على الحدائق والمزارع فيذكر فلاحة والده ويلتفت إلى أحمال الإبل من السمن ويقول في نفسه إن شاء الله إذا حصلت على مبلغ من المال أشتري حديقة في بريدة، الله يلحقنا خير. ومضى وراء الإبل يسوقها أمامه يساعده رجل من بادية حرب، وأوغل قطار الإبل في الصحراء متخذاً طريقه جنوب غربي بريدة، ثم اتخذ طريقه مغرباً وكان عزمان قوي الجسم يمشي مع الإبل المحملة ويرفض ركوب ناقته فقال لرفيقه الحربي اركب ناقتي فأنا لن أركب اليوم، أنا أرغب المشي، أنا فلاح ياأخي. فقال الحربي : أنتم يا أهل بريدة حضر تتحملون ما يتحمله رجال البادية وتعرفون ما يعرفه البدو والحضر ! فقال عزمان ما عليك زود، وضحك البدوي وقال : المكاتيب التي أعطاك

الحضر في بريدة لتوصلها إلى مكة ألا تعرف محتوياتها يمكن تسفيد منها في تجارتك. فقال عزمان المكاتيب أمانة ونحن لا نتعرض للأمانة بالخيانة فضحك البدوي وقال : أنا ما أريد أنك تفتحها وتعرف ما فيها ولكن أقول ما تعرف ما فيها قال عزمان : لا. ورفع الحربي صوته يغني : «شوقي هنوف من البدو». وطلب من عزمان أن يغني معه فقال عزمان بودي أن أغني معك ولكن عيني على حمول البعارين ومشي البعارين، ولكن لا خلاف سوف أغني : «شوقي وفاء من الحضر»، وضحك البدوي وقال كل له شوقه، لكن غن لوحدك ما أنا مشاركك في نشيدتك. وركب البدوي ناقة الحضري حتى وقت صلاة الظهر، حيث أناخا الإبل ووضعا عن ظهورها الأثقال وتركاها ترعى، واتجها يعدان القهوة والشاي ثم أعد عزمان خبزاً وقدمه للرجل الحربي وحياه فقال الحربي الله يهديك ياعزمان ما تركتني أجهز الخبز أنا عنك ؟ أنت المعزب، فقال عزمان : ما بيننا فوارق كلنا إخوان. وبعد الغداء صلّيا جمعاً وقصراً وتفقدا الإبل فوجداها تأكل العشب وبعد أن أكلت من العشب ما يقويها على حمل الأثقال والسير وأبرد حر الظهيرة قربا الإبل ووضعا عليها الأحمال واستأنفا سيرهما إلى مكة، وبعد أربعة عشر يوماً وصلا إلى مكة فباع عزمان السمن والإبل ونقد للحربي أجرته وأخبره أنه سوف يبقى في مكة للتجارة، فإذا كان الخوي وبهذا اللقب كان ينادي ويصف رفيقه يرغب بالبقاء معه وإلا فعليه أن يعود إلى حيث يريد. فتشكر الحربي من رفيقه وودعه فقام عزمان وقدم له طعاماً يكفيه إلى أهله وقدم له قربة للماء فودعه الحربي وأخذ طريقه على ناقته التي اشتراها من الأبطح وتركها في حشو حضري من أهل نجد وركب ناقته واتجه إلى المدينة المنورة وما أن وصل إليها حتى أناخ راحلته في المناخة واتجه إلى المسجد

النبوي يصلي ثم زار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وركب راحلته واتجه إلى بريدة وبقي فيها مدة يشتغل مع تاجر إبل يساعده على شراء الإبل ورعيها وسقيها، ثم سافر إلى هجرته دخنه، وفي الطريق مر على مكان أقام فيه ساعات مع عزمان جنوب غربي بريدة فقال : الله يذكرك بالخير ياعزمان، إنك والله الرجل الخيِّر. وواصل طريقه إلى أهله فوجدهم يتوقدون شوقاً إليه، فقال لهم أنا تأخرت عليكم ولكن جئت لكم بالخير. بقي عزمان في مكة أياماً ثم توجه منها إلى المدينة المنورة هو الآخر ومنها توجه إلى الجوف ووصل إلى دومة الجندل فاشترى منها سمناً وإبلاً ورحل إلى دمشق وباع السمن والإبل وطابت له الإقامة والتجارة في دمشق، وفي بادية الشام حيث صار ينتقل بين بادية الشام ودمشق يتاجر بالخيل والإبل والسمن، وفي ليلة وكان ينام في فندق عقيل بدمشق « عقيل» : كلمة تطلق على رجال من أهل بريدة يكثرون الأسفار للتجارة مع الشام والعراق ومصر والمغرب العربي والسودان في العصور التي كانت الإبل والخيل هي وسيلة النقل وكانت المواشي هي المال الرئيسي في التجار وأهل بريدة هم الذين يسيطرون على الأسواق العربية عامة في تجارة المواشي داخل الجزيرة العربية وخارجها. ويدخل في عقيل من ليس من أهل بريدة إذا كان يمارس عمل «عقيل».

تذكَّر عزمان أطفاله وزوجته وفاء واستعرض مالديهم من طعام ودراهم وصار يراجع نفسه ويحس هل تكفي لمؤونتهم إلى الآن؟ أم قد نفدت ياسبحان الله. وأخذ يلوم نفسه كيف أهمل أطفاله وزوجته وفاء لقد مضى على سفره من بريدة عشرة شهور وتذكر أن لديهم العيش البر والتمر ولوازم القهوة ولكن البيت يحتاج إلى خضرة وإلى سمن وإلى

لحم لإعداد الطعام. وعزم عزمان على بعث مبلغ من المال والكسوة إلى زوجته وأطفاله، وفي الصباح ذهب إلى سوق عقيل في دمشق وسأل عن مسافر إلى بريدة فقيل له : إن متعب العبد الله الموجود الساعة في قهوة عقيل سوف يعود إلى بريدة بعد أن صرف تجارته وأخذ بقيمتها تحويلاً على بريدة عن طريق تاجر كويتي فاتجه إليه فوجده وسلم عليه وعرض عليه حاجته بإرسال أمانة معه إلى أهله في بريدة فأظهر متعب موافقته على قضاء حاجته ورغبته في قضائها، فعاد عزمان إلى سوق الحميدية واشترى منه أقمشة لكسوة زوجته وأطفاله ووضع خمسين ريالاً في طرف قطعة قماش. ثم عاد يبحث عن متعب، وفي السوق قابله عقيلي فسأله عن القماش الذي معه لعله جهاز لامرأة سوف يتزوجها ويترك أم أولاده. فقال عزمان : لا، أم العيال ما تترك ولكن أم العيال أين هي؟ إنما هذا القماش كسوة للأطفال ولزوجتي ومعه قليل من الدراهم، فضحك العقيلي وقال : لو أنك وضعت النقود في خبزة مثلما وضع الذهب حمود لوالده في خبزة كبيرة وأرسلها مع بدوي إلى أبيه في بريدة. قال عزمان حمود بعث ذهباً مع رجل لا يعرفه فخاف على الذهب فاحتال عليه وقال : أبوي غير مطمئن إلى أننا في سعة من العيش ولكن من فضلك وصل له هذه الخبزة الكبيرة ليعرف نوع الخبز الذي نأكله فيطمئن إلى حالة معيشتنا وكانت الخبزة كبيرة محشوة ذهباً. ووصلت الخبزة إلى الأب دون أن يعلم حاملها ما في جوفها. أما أنا فأرسل مبلغاً صغيراً من المال مع رجل أعرفه ويعرفه الناس بأمانته ورجولته إنه متعب العبد الله. وعاد عزمان إلى متعب العبد الله وسلمه القماش ووصل متعب إلى بريدة بعد شهر وسلم الأمانة إلى زوجة عزمان التي سألت عن زوجها عساه بخير. وما إن شعر الأطفال بوجود رجل

قادم من أبيهم حتى تراكضوا إليه يسألونه عن أبيهم فقبلهم وبشرهم باستقامة صحة أبيهم وأنه في الشام. وأسقط في يدي المرأة وفاء فلم تك تعلم أن زوجها في الشام البلاد البعيدة كانت تظنه في مكة وانتقل منها إلى المدينة المنورة والمدينة قريبة من بريدة وكان علمها السابق عن وجوده في الحجاز يطمعها ويغريها بالحج إلى بيت الله الحرام. ونادت الأطفال وعرضت عليهم الملابس التي بعث بها والدهم لهم ففرحوا بها وقالوا كلهم : بابا متي يجي وانحدرت من عينها دمعة، فمسحتها بطرف ثوبها، وقالت في نفسها هذه التجارة التي دفعته إليها أنا السبب في إبعاد زوجي. واستمر عزمان في تجارته بالشام ينتقل في أسواق دمشق وبادية الشام ومضى عام كامل على غيبته، وبعد مضي العام أرسل لزوجته خمسين ريالاً أخرى، ولكن المبلغ الأول من النقود كان محفوظاً لدى وفاء التي بدأت تشتغل في الخياطة وتنفق على الأسرة الصغيرة التي غاب رئيسها ما تحتاجه دون أن تخبر أهلها أن زوجها بعث لها نقوداً، كانت تحتفظ بالنقود احتياطاً منها لضرورات الأيام، ولكن أهلها كانوا يعرفون أن زوجها قد وصى على بيته صديقاً له، وأن هذا الصديق يرسل زوجته لتفقد حاجة البيت، ولكن وفاء كانت ترفض أن تأخذ شيئاً وتقول : كل شيء عندنا موجود مما نحتاجه، ولكن خال وفاء يدرك أنها تأخذ الأجرة على خياطة الملابس للجيران، فزارها وقال لها مضت سنة ونصف على غيبة زوجك وهو لا يبعث لك بما يحتاجه البيت ويحتاجه أهل البيت فأنا أشير عليك بفسخ نكاحه والزواج من غيره. فضحكت وفاء مستنكرة هذا الرأي من خالها، وقالت : إن البيت فيه طعام وهو يبعث لنا بالكسوة فقال خالها : الطعام وحده لا يكفي، فأنتم تحتاجون الخضرة واللحمة والفاكهة. قالت وفاء: إنه يبعث بتوصية لصديقه

يقوم بواجبنا فلو احتجنا شيئاً أخذناه منه، فأنا أخيط ملابس الجيران للتسلية وتمضية الفراغ وآخذ منهم أجرة واشتري ما نحتاجه برغبتي واختياري غير مضطرة ولا مكرهة. فقال خالها: هذا لا يكفي الأحسن أن تفسخي نكاحك من الرجل الغائب وتتزوجي غيره. فقالت وفاء: ولكن لن أترك هؤلاء الأطفال الذين ماتت أمهم. من يعنى بتربيتهم ونظافتهم ونظافة ملابسهم والعطف عليهم والاهتمام بشؤونهم. إنهم أولادي، وقد عقدت العزم على الاهتمام بهم حتى لا يشعروا بفقد أمهم. ولا بفقد أبيهم مادام غائباً. وكان الطفل الأكبر شجاع يسمع ما دار بين زوجة أبيه التي يسميها أمه وبين خالها. فحفظ شجاع ما قاله كل منهما وكان يحب زوجة أبيه التي يسميها أمه، والتي وجد فيها شخص أمه الحقيقي، فزاد تعلقه بوفاء. ومضت ثلاث سنوات وعزمان في غيبته الطويلة في الشام يعمل في تجارته ولا يغفل عن إمداد زوجته بالنقود التي كانت تحتفظ بها. وفي صباح يوم وقف مالك الدار على بابها ونادى : يا أهل البيت فردت عليه وفاء بقولها : من عند الباب؟! فقال : صاحب البيت. وسأل عن عزمان فقالت إنه غائب. فقال المالك : هل وضع عندكم أجرة البيت؟ إنه لم يسددها منذ سنتين، إنني أريد أجرة الدار لسنتين خلت. وكان قد دفع أجرة سنة مقدماً عند سفره. فقالت وفاء : بلى. وذكرت النقود التي احتفظت بها فأسرعت إليها وقدمتها أجرة سنتين فقبضها المالك وانصرف. وبعد أيام وصل عزمان من الشام يحمل الأمل الكبير النقود الكثيرة والكسوة والهدايا في حقائبه فأناخ راحلته عند داره؟ ودخل إلى أسرته ينادي طفله الكبير شجاعاً، وينادي وفاء فركض أفراد الأسرة الصغيرة الذين يعرفون عزمان ومنهم من لا يعرفه يتسابقون إلى لقائه ... بابا! بابا! وتقبله ثم أدخل ناقته إلى فناء

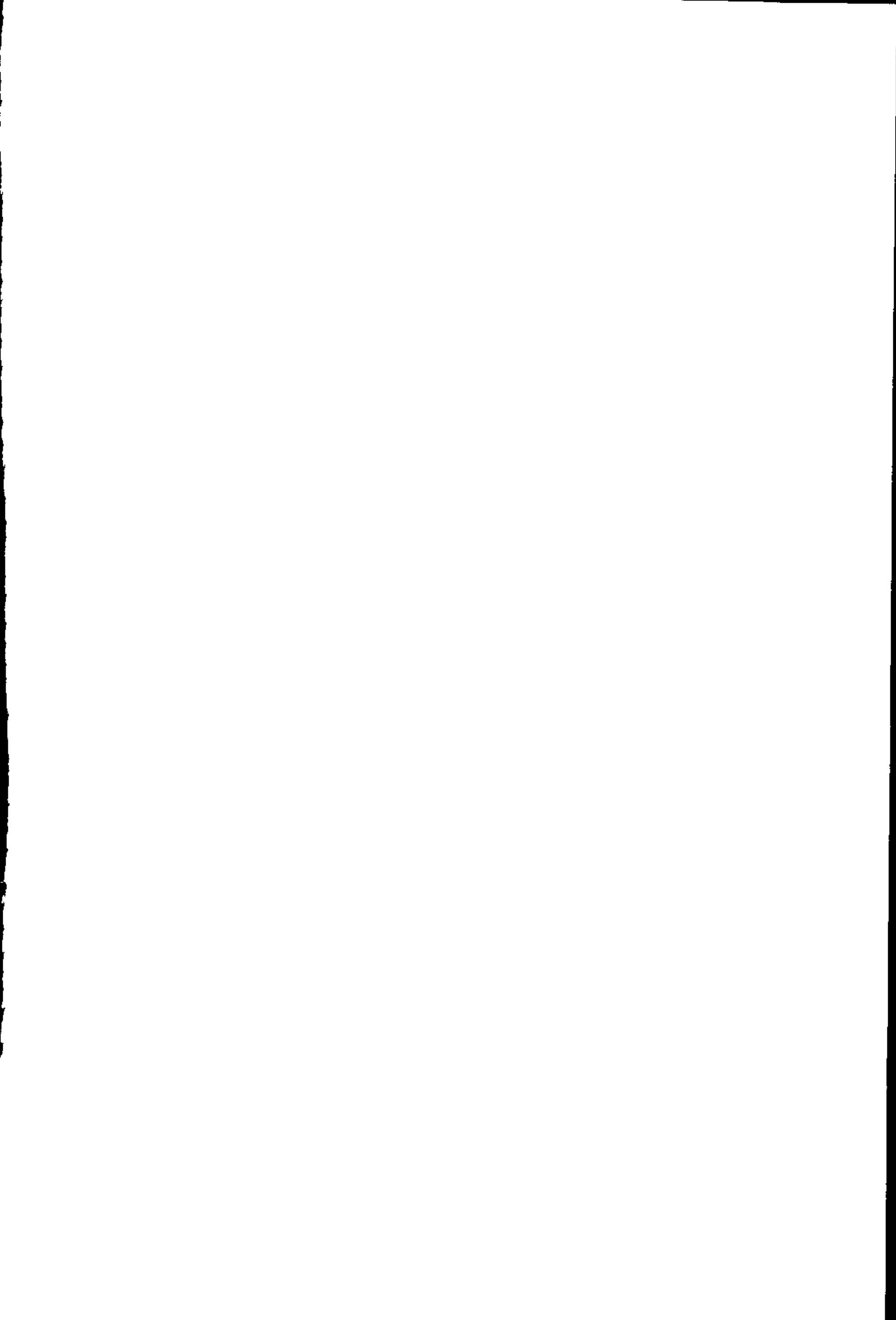
البيت وحط عنها أثقالها، وأقبل الجيران يسلمون على عزمان ويحيونه ومنهم من يقول طولت الغيبة ياعزمان. وكان يرد من طول الغيبات جاء بالغنائم، وانصرف الجيران فجاءت وفاء إلى مجلس الاستقبال وحيت أباشجاع فرد عليها تحيتها وقال : مالي أراك يا وفاء هزيلة الجسم؟! فابتسمت ولم ترد جواباً، وبعثت بشجاع يبشر أقاربها بوصول زوجها. واتجهت إلى الوجار تعد قهوة وشاياً فسألها عن حالها فردت عليه هذه المرة بقولها :نحن بخير، فأعاد سؤاله السابق : ولكن أراك تبدين هزيلة. فقالت : من طول غيبتك يا أباشجاع . فقال : أخشى أن يكون حصل عليكم نقص فقالت : لا. فقال : أنا موص عليكم صديقي فلاح : وأشار إلى ولده ياولد: ادع فلاح وقل له يأتي معه بكشف حساب مصرف البيت. فقالت: صديقك ما قصر عرض اللازم مرات كثيرة، ولكننا كنا نعتذر عن قبول ما يعرضه علينا بوفرة حاجتنا عندنا في البيت. وتناول القهوة ثم وزع الهدايا على أطفاله وزوجته وفاء وجيرانه، وأخذ نقوداً وذهب من توه إلى مالك الدار يسلم عليه ويسدد له أجرة الدار، وبعد السلام سلم له الأجرة، فسأله المالك عن النقود لماذا سلمها فقال : إنها أجرة الدار للسنتين اللتين لم تسدد. فرد المالك بقوله: إنه قد استلم أجرة الدار للمدة الماضية ولا حق له. فقال عزمان: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأدرك أن النقود التي كان يرسلها لزوجته لم تنتفع بها وأنها احتفظت بها وسلمتها أجرة للدار وقال في نفسه أنا سبب هزال هذه المرأة لقد عذبتها ونغصت عليها حياتها، وأقام عزمان في أهله شهراً، ثم سافر إلى العراق وترك عند أهله طعاماً وفيراً ومبلغاً من المال يكفيهم لمدة سنة، ووصل إلى بغداد ومن بغداد خرج إلى بادية العراق وظل تسعة شهور وهو ينتقل بين مدن العراق وبادية العراق يشتغل بالتجارة في الخيل والإبل، ثم عاد

إلى أهله في الشهر العاشر من غيبته تحسباً لوضع عائلته وما طرأ عليها ووصل إلى بريدة فوجد زوجته مريضة، لقد كانت تقتر على نفسها وتقدم الغذاء الكامل للأولاد الصغار وتشتري لهم اللعب، كانت تهتم بالصغار الذين فقدوا أمهم وتهمل نفسها، وليتها اهتمت بنفسها مع اهتمامها بالصغار، واقترب عزمان من وفاء يستفسر عن صحتها فقالت إنها تحس بضعف، إنها غير نشيطة. وقرر عزمان أن يذهب بزوجته إلى مستشفى بغداد وأخذ يستعد للسفر ويهيئ لها مركباً يضعها في داخله، ولكنها ماتت قبل الرحيل. ماتت وفاء فبكاها عزمان، وبكاها أطفال عزمان الذين كانت لهم بمثابة أمهم، وبكاها الجيران وحزن عليها أهلها. وبعد شهرين تزوج عزمان ونقل الزوجة الجديدة إلى بيته وقال لأولاده هذه أمكم الجديدة فتراكض الصغار يقبلونها، أما شجاع فقد تراجع عن السلام عليها عندما اقترب منها فمدت يدها وجذبته إليها وقبلته فهمس في أذنها قائلاً أنا أحب وفاء فقبلته مرة أخرى وضمته إلى صدرها محاولة ألا يسمع أبوه همسه في تذكر وفاء. ولكن شجاع انتقل إلى جوار أبيه وقال له : أنا أحب وفاء. فقال أبوه : سوف تجيء وفاء. وفي حياة الزوجة الجديدة مع الأطفال كانت تعاملهم معاملة حسنة، وكان أبوهم يحرص على راحتهم ويتفقد نظافتهم ونظافة ملابسهم، وكانت الزوجة تهتم بهم بدافع شخصي نابع من إحساسها بواجبها نحو هؤلاء الصغار الذين فقدوا أمهم. وبقي عزمان في بريدة عند عائلته يشتغل بالتجارة في الماشية. وفي ١٣٥٦/٣/١هـ كان ولده شجاع قد بلغ السنة السابعة من عمره فأدخله في المدرسة السعودية الابتدائية التي فتحت في مطلع العام في مدينة بريدة، وكان موقعها بعيداً عن داره فصار والده يوصله كل صباح إلى

المدرسة ويعود شجاع مع أولاد الجيران الذين يأتون به معهم إلى البيت، وفي طريقه إلى المدرسة صباح يوم قال لأبيه مرة أين ماما وفاء؟ أنا أحب وفاء، ولم يجد جواباً من والده غير قبلة طبعها على جبينه الصغير ونجح الطفل شجاع من السنة الأولى الابتدائية واستمر في دراسته يحالفه التوفيق والنجاح حتى نجح من السنة الرابعة الابتدائية في عام ١٣٥٩هـ، وأبوه عزمان في بريدة لم يبرحها. ثم قرر عزمان الرحيل إلى مدينة الرياض ورحل إليها تصحبه أسرته وفيها شجاع الذي صار يقرأ ويكتب ويعرف معلومات عن الحساب ووصل عزمان إلى الرياض ففتح متجراً يدر الأرزاق، ثم أخذ ولده شجاع صباح يوم إلى مدرسة مجاورة لجامع الإمام فيصل بن تركي في الرياض فألحقه بها، وأمضى شجاع أياماً في المدرسة، ودرس مع الأطفال القرآن والخط، فأدرك أن معلومات المدرسة ضعيفة، وأدرك المدرس أن معلومات التلميذ شجاع جيدة فطلب منه أن يدرّس التلاميذ الصغار في المدرسة المكونة من غرفة واحدة على السوق. ولما عاد شجاع بعد أن كلّفه المدرس بالتدريس قال لوالده أنا لا أستفيد من المدرسة فالمدرس لا يحسن التدريس وليس في المدرسة كتب مدرسية إنهم يقرؤون القرآن ويأخذون درساً في الخط ولا يتقيدون بأصول التجويد، وليس لي فائدة من هذه المدرسة فقال الأب : في القصر مدرسة أحسن منها ولكننا لا نعرف واسطة نلحقك بها. ولكن الأحسن أنك تبقى معي في الدكان تساعدني في العمل. وقطع شجاع دارسته ولازم والده في المتجر والبيت وصار يساعد والده في كتابة حساباته والاتصال بعملائه، وتعلم شجاع فنون التجارة وأصبح شاباً يعتمد عليه. وفي يوم من الأيام قال لوالده أريد أن أتصدق لوفاء. فسر والده وأعطاه مائة ريال يتصدق بها وأجرها

لوفاء. وكبر الولد وانفرد بتجارته يعمل بمتجر لحسابه، وكثر مال شجاع، وتزوج ورزق بنتاً فسماها وفاء وظل يذكر وفاء بجانب ذكره لأمه وصار يتصدق محتسباً الأجر لأمه التي ولدته ويتصدق محتسباً الأجر لأمه وفاء التي ربته ورعته والتي يسميها أمه وفاء. وبينما هو نائم ذات ليلة مع زوجته في سطح الدار، رأى وفاء في الحلم فقام مذعوراً من هول المفاجأة يصيح وفاء! أمي وفاء! فاستيقظت زوجته وقالت : بسم الله عليك. وأدرك شجاع أنه كان يحلم بوفاء، فجلس على فراشه يتمم بكلمات. إنه يدعو لوفاء، ثم وضع رأسه على وسادته ونام. وفي الصباح قرر أن يشتري بيتاً يوقف ريعه صدقة وثوابها لأمه التي ولدته وأن يشتري بيتاً آخر مماثلاً يوقف ريعه صدقة وثوابها لوفاء. ونفّذ عزمه الصادق فاشترى بيتاً لأمه التي ولدته، واشترى بيتاً لوفاء.





هيفاء ؟

تأخر عدنان عن الحضور إلى مكتبه في الوزارة صباح يوم عن الميعاد المعتاد لحضوره، وبقي الموظفون المرتبطون إدراياً في مكتبه يرقبون حضوره، وتساءلوا بينهم هل هو حاضر في مدينة الرياض؟! أم أنه حاضر مريض، أم أنه مسافر إلى مكان آخر؟ ولم يصلوا إلى جواب مقنع، فالكل لا يعرفون عن عدنان وغيابه شيئاً. وعدنان لم يكن من عادته التأخر عن الحضور ولا التخلف عن الدوام اليومي في وكالة الوزارتين، وكان قاسياً في معاملته لزملائه يحاسبهم على التأخر، ولا يترك لهم دقيقة واحدة يتأخرها أحد منهم دون تسجليها عليه ومحاسبته عليها، هذا ما يفهمه زملاؤه وهذا ما جعلهم يبقون في مكتبه انتظاراً لوصوله ليوقعوا على دفتر الحضور اتقاءاً لشره، وهؤلاء الموظفون يدركون أنهم يحاسبون على الحضور ولا يلتفت لإنتاجهم في العمل. وحضر عدنان في الساعة الرابعة بالتوقيت الغروبي يجر خطاه ويبدو عليه الإجهاد أو المرض وأخرج دفتر الحضور ورماه بعصبية : قائلاً : خذوا كلكم وقعوا حتى الذين حضروا متأخرين لهم أن يوقعوا، كان يحاسب من ظنه متأخراً من الموظفين بهذا اللطف المغلف بالتأنيب، وزاد وهو مشحون النفس بالغضب أنا تأخرت بعد، أتريدون أن تحاسبوني على تأخري ؟! وتزاحم الموظفون على دفتر التوقيع يسجلون حروف أسمائم الموصولة والمقطوعة بطرق هندسية غير متقنة يسمونها تواقيع، ثم انصرفوا بعد أن طبع كل واحد منهم بالدفتر. وقهقه بعضهم ضاحكاً وهو يعبر المر الذي يفصل غرف القسم بعضها عن بعض.

وعاد بعض الموظفين إلى غرفة مدير القسم عدنان يشاركه شرب الشاي. ولاحظ أحدهم استغراق رئيسه عدنان في التفكير غير مهتم بمن حوله فسأله عسى ألا يكون مريضاً فقال : لا والله. وسأل آخر ما الذي يشغل بالك؟ فرد عدنان : الله لا يوريك البنية راسبة في السنة السادسة الابتدائية وقد ملأت الدنيا صياحاً وعبرات، حتى بكينا معها. فعقب عليه أحد الموظفين بقوله: البنت مكملة وفيه دور ثاني. وسأل زميل ألم تدرسها قبل الاختبار؟ فرد: أنا فاضي أدرسها، أنا مثل ما ترون : عملي كثير، وبعد ما أخرج من العمل المرهق أطلب الراحة لنفسي، لكنني أتيت لها بمعلمة تدرسها ولكنها رسبت في الدروس الخصوصية التي كانت تدرسها المعلمة، لقد كانت تدرسها المدرسة في البيت «الحساب والهندسة والنحو» فرسبت في هذه الدروس ونجحت في الدروس التي لم تأخذ فيها دروساً خصوصية ونبهه زميل إلى أن البنت مكملة وليست راسبة وأن هناك دوراً ثانياً للاختبار، ونصحه بتدريس البنت في العطلة الدروس التي أكملت فيها وقبل عدنان النصيحة فقام بتدريسها خلال العطلة الصيفية رغم أنه قد بعد به العهد عن الدروس المدرسية فمع كون الدارس ينسى العلوم التي لا يذاكرها، ولا يعمل بها في أعماله اليومية، فإنه قد بدأ بتدريسها بعد ظهر كل يوم خلال العطلة، فوجد أن البنت ضعيفة لا تفهم شيئاً في حساب السنة السادسة، ومعلوماتها ضعيفة في الهندسة ومعلوماتها في قواعد اللغة العربية ضعيفة، واستمر يدرسها فقالت له : يا سيدي أنا أعرف تدريسك وما كنت أعرف تدريس المعلمة في الدروس التي أخذتها في المدرسة. فقال أبوها عدنان : عدد التلميذات في المدرسة كبير، ولكن هناك سبب غير هذا وهو أنك كنت ضعيفة، وما استطعت أن تسيري في الدروس وليس السبب من

المعلمة، ويبدو أنك يابنيتي هيفاء قد استغلق عليك فهم علوم الحساب والهندسة والنحو، والمدرسة ماذا تفعل في تلميذة ليست مستعدة للمعرفة حيث فاتها ركب البنات الفاهمات. أما مدرسة الدروس الخصوصية فيبدو أنها كانت تعطيك الموضوع فإذا لم تستطيعي حله قامت هي بحله دون أن تستفيدي أنت علماً، ثم تنصرف المدرسة مكتفية بتمضية الوقت المتفق عليه معها وهكذا في كل يوم. ولم تعقب هيفاء على والدها ومضى عدنان يدرس بنته مؤثراً تعليمها على راحته. وحان وقت الامتحان وحضرت هيفاء إلى صالة الامتحان فأجابت في اليوم الأول إجابات كاملة على عموم الأسئلة في النحو. وفي امتحان مادة الحساب حلت جميع المسائل المطلوبة، ولما عادت إلى البيت أمسكت سماعة الهاتف واتصلت بأبيها عدنان تخبره وهو على مكتبه في الوزارة أنها قد أجابت وما إن رد عليها حتى أخذت في الضحك فقال أبوها : تضحكين! وبشرته أنها أجابت على جميع أسئلة الحساب وإجابات كاملة، فانشرح صدر عدنان لبشراها. وفي الهندسة رسمت الأشكال الهندسية المطلوب رسمها وأجابت على الأسئلة الأخرى إجابات كاملة. وكانت أيام الامتحانات في الدور الثاني تعود البنت ضاحكة مستبشرة على خلاف حالتها النفسية في الدور الأول، وكان عدنان قد تأخر عن الحضور إلى مكتبه في يوم امتحان مادة النحو حتى أخذ بنته هيفاء من المدرسة التي خصصت للامتحان بعد أن انتهت من إجابتها واطمأن إلى قدرتها على فهم الأسئلة والإجابة عليها، وتركها اليومين الأخيرين تحضر مع زميلاتها في سيارة رئاسة مدارس البنات. وانتهت من اختبار المواد الثلاث التي أكملت فيها وظهرت نتيجة اختبار الدور الثاني عام ١٣٨٧هـ وإذا هيفاء بنت عدنان يعلن عن اسمها ناجحة في الدور الثاني،

فهلل وكبّر عدنان لنجاحها الذي يعتبره عائداً إليه وإلى جهوده التي بذلها في تدريسها مؤثراً تعليمها ونجاحها على راحته. وعاد في صباح ليلة إعلان النتيجة فوجد الموظفين ينتظرونه في مكتبه ليهنئوه بنجاح هيفاء فقد سمعوا اسمها من المذياع ناجحة، وتقبل تحياتهم وتهانيهم وتمنياتهم لهيفاء باطراد النجاح والفوز في الاختبارات القادمة، وأخرج دفتر التوقيع على الحضور من مكتبه ورماه إليهم رضي النفس يقول : وقعوا بدون استثناء التأخر حتى أنا تأخرت رحت السوق وغدوت لرئاسة مدارس البنات من أجل أن أعرف درجات نجاح هيفاء فوجدتها متفوقة والحمد لله، لكن في الدور الثاني. وانتهت العطلة ورأى عدنان أن يدخل هيفاء في معهد المعلمات، لتحلق بركب الدارسات التربويات، وما إن أفصح لها عن رأيه حتى اعترضت عليه اعتراضاً مؤدباً، قائلة أدخلني في المدرسة المتوسطة لأنها بجوار دارنا قال عدنان : ولكن معهد المعلمات فيه مكافأة والبلد محتاجة إلى معلمات ودراسة المتوسطة والثانوية ماذا تعملين بعدها؟ قالت يمكن أن أعمل مدرسة أو لا أعمل مدرسة، المهم العلم أتعلم والعلم هو المقصود، بإمكاني أن ألتحق في الكلية أواصل دراستي الجامعية، فألح عليها بالدخول في المعهد وهنا أباحت بما تظنه سراً قالت : المدرسات يشجعن التلميذات على الدخول في المتوسطة ولا يشجعن البنات على الدخول في معهد المعلمات. إنهن يتبرمن من وضعنا اسم معهد المعلمات في الاستمارات الابتدائية. قال عدنان : هناك إشاعة تقول المدرسات لا ينجحن تلميذات معاهد المعلمات خوفاً من اكتفاء البلاد بهن واستغنائها عن المعلمات المتعاقدات، ولكنني أنا أقول :هذا كلام ليس كله صحيحاً فالمدرسات يختلفن أمانة وعلماً ومروءة كما أن المدرسات اللاتى يأتين من بلاد عربية يختلفن عن

المدرسات الأخريات اللاتي يأتين من بلاد عربية أخرى. وأنا لو كنت صحفياً لكتبت رأيي وما يبلغني من إشاعات عن هذا الأمر. قالت هيفاء : هذا الكلام قد لا يكون صحيحاً فقد يكون توجيه المعلمات تلميذاتهن إلى التعليم الثانوي نابعاً من تجاربهن في بلادهن ورغبتهن الصادقة في تقدم التعليم في المملكة العربية السعودية وهذا معهد المعلمات في الرياض العاصمة ينجح منه في الدور الأول ثلاثون بالمائة والبقية ينجحن في الدور الثاني بنسبة مرتفعة. قال عدنان يمكن الإشاعة غير صحيحة. وأراك تدافعين عن مدرساتك. قالت هيفاء ولكن تلميذات المدارس الثانوية ينجحن بنسبة أكبر من نسبة نجاح معاهد المعلمات وربما يرجع هذا النجاح الأكبر إلى يسر منهج التعليم المتوسط والثانوي وصعوبة منهج تعليم معاهد المعلمات الإعدادية والثانوية. قال عدنان : أنا وأنت يا هيفاء صرنا خبيرين في التعليم. قالت هيفاء : هذه تجارب الناس ومشاهدات وسماعات وإشاعات قد لا تكون قطعية، ولكنني أنا أحسن الظن بالمدرسات. قال عدنان : المدرسات لهن ضمائر ولهن مكارم أخلاق وفيهن خوف من الله، وهن نساء فاضلات متعلمات مثقفات، ولا يرضين لبناتهن أن يحرمن من النجاح فهن لا يرضين برسوب التلميذات، لأن تلميذاتهن منسوبات إليهن ونجاحهن نجاح للمدرسات في حياتهن العملية، وهناك أمور لا تغيب عن البال فهي مطمئنة منها أن الرئاسة لا تأتي إلا بمدرسات تختارهن بموجب مواصفات وشروط تضعها الرئاسة، ومنها مراقبة الرئاسة لأعمال ونتائج أعمال المدرسات. قالت هيفاء مادام هذا شعورك يا سيدي فهيا إلى معهد المعلمات. ولحقت هيفاء بطالبات معهد المعلمات ودرست ثلاثة شهور في السنة الأولى الإعدادية : ثم طلبت من مدرسة أن تأتي لتدريسها في البيت

مقابل أجر. فقالت المدرسة بأربعمائة ريال في الشهر. قالت هيفاء : هذا المبلغ ضعفي مكافأتي الشهرية والجهد الذي سوف تبذلينه لا يستحق هذا المبلغ ؟ أنت راتبك الشهري أربعمائة ريال. قالت المدرسة يا عيني عليك. أنا راتبي أربعمائة ريال. أنا أشتغل بألف ريال في الشهر عند الرئاسة، والرئاسة تكرمنا تعطينا بدل سكن وبدل ترحيل. قالت هيفاء: من أجل أن الرئاسة تكرمك درسيني بمائتي ريال في الشهر. قالت المدرسة أدرسك بأربعمائة ريال في الشهر كل يوم ساعة واحدة، وإلا لا تكثري الكلام البنات كلامهن كثير. قالت هيفاء : النساء هن اللائي كلامهن كثير. قالت المدرسة : ساعة ونصف كثير، ساعة واحدة تكفي إذا كنت حريصة على العلم. واتفقت هيفاء مع مدرستها على الدراسة الخصوصية بعد العصر تأخذ ستة حصص في الأسبوع قواعد وحساب وهندسة وتقويماً. وعادت هيفاء إلى البيت فأخبرت أباها عدنان فقال : يا هيفاء تأخذين المكافأة من المعهد وتعطينها للمدرسة، ثم تطالبينني أن أضيف عليها ضعفها من راتبي وتعطينها للمدرسة. هل غابت عن ذهنك تجربة العام الماضي، أهملت الواجبات وانصرفت إلى الدروس الخصوصية فكانت النتيجة الإكمال في الدور الأول. فألحت هيفاء على والدها أن يساعدها هذه السنة بالمعلمة ولن تهمل واجباتها : فأكد عدنان أن التلميذة إذا اهتمت بالدروس في الفصل ووجدت هي الأخرى قدرة واهتماماً من مدرستها في الفصل ولم تتخلف عن الحضور وذاكرت الدروس في المنزل وحلت واجباتها فإن نجاحها بإذن الله مضمون. قالت هيفاء يا ليت. وأمام إلحاح هيفاء وافق عدنان على رجائها بالارتباط مع المدرسة الخصوصية. وبدأت المدرسة تحضر بعد العصر فكانت هيفاء تنتظرها وتترك واجباتها المدرسية، وتأتي المدرسة ويمضي الوقت دون

فائدة تذكر. كانت المدرسة تعطي موضوعاً أو مسألة لهيفاء وتطلب منها الإجابة على طريقة الاختبار أو التطبيق، ويمضي جزء من الوقت دون أن تتوصل هيفاء إلى الإجابة الصحيحة وقبل نهاية الوقت بدقائق تقوم المدرسة بحل الموضوع كبرهان على قدرتها على استيعاب الموضوع ومعرفته. ثم تقدم الدفتر لهيفاء قائلة تصفحي الموضوع وافهميه وغداً سوف أعيد عليك الموضوع. ومضت بقية السنة الدراسية وقارب زمن الامتحان أن يحل فأدركت المدرسة أنها قد أضاعت الوقت النفيس على تلميذتها دون إفادة لها بإيصال المعلومات إلى ذهنها، وخشيت من الحرج فلجأت إلى إطالة المكث عندها لتدريس المعلومات الكافية لنجاحها. وبدأت هيفاء تحل المسائل الحسابية والتطبيقات النحوية ودروس الهندسة والتقويم، ولكنها كانت دون مستوى السنة الأولى الإعدادية. وقامت المدرسة بتركيز ذهن الطالبة على مسائل وموضوعات اختارتها في أربع مواد ودخلت هيفاء إلى صالة الامتحان وأدت امتحان اليوم الأول ؛ وعادت إلى البيت فسألها أبوها عدنان عن الإجابة فقالت : والله الأسئلة كانت صعبة في مادة العلوم، كانت الأسئلة ثلاثة أجبت على واحد منها وتركت الاثنين دون إجابة. وعلى هذا لن أنجح في الدور الأول. قال عدنان :المعدل الشهري يمكن ينفع . قالت ما أدري. ومضت تؤدي الامتحان وظهرت نتيجتها فكانت مكملة في القواعد والحساب والهندسة والعلوم ونجحت من الدروس الخصوصية بدرس واحد هو التقويم ووعدها أبوها بتدريسها في العطلة، فقالت الله يخليك يا سيدي ؛ كانت المدرسة قد ركزت اهتمامها واهتمام التلميذة على موضوعات قالت يمكن تجيء الأسئلة عليها، ولم تأت الأسئلة عنها. وبعد أيام بدأ عدنان يدرس بنته هيفاء ونجحت في اختبار الدور الثاني.

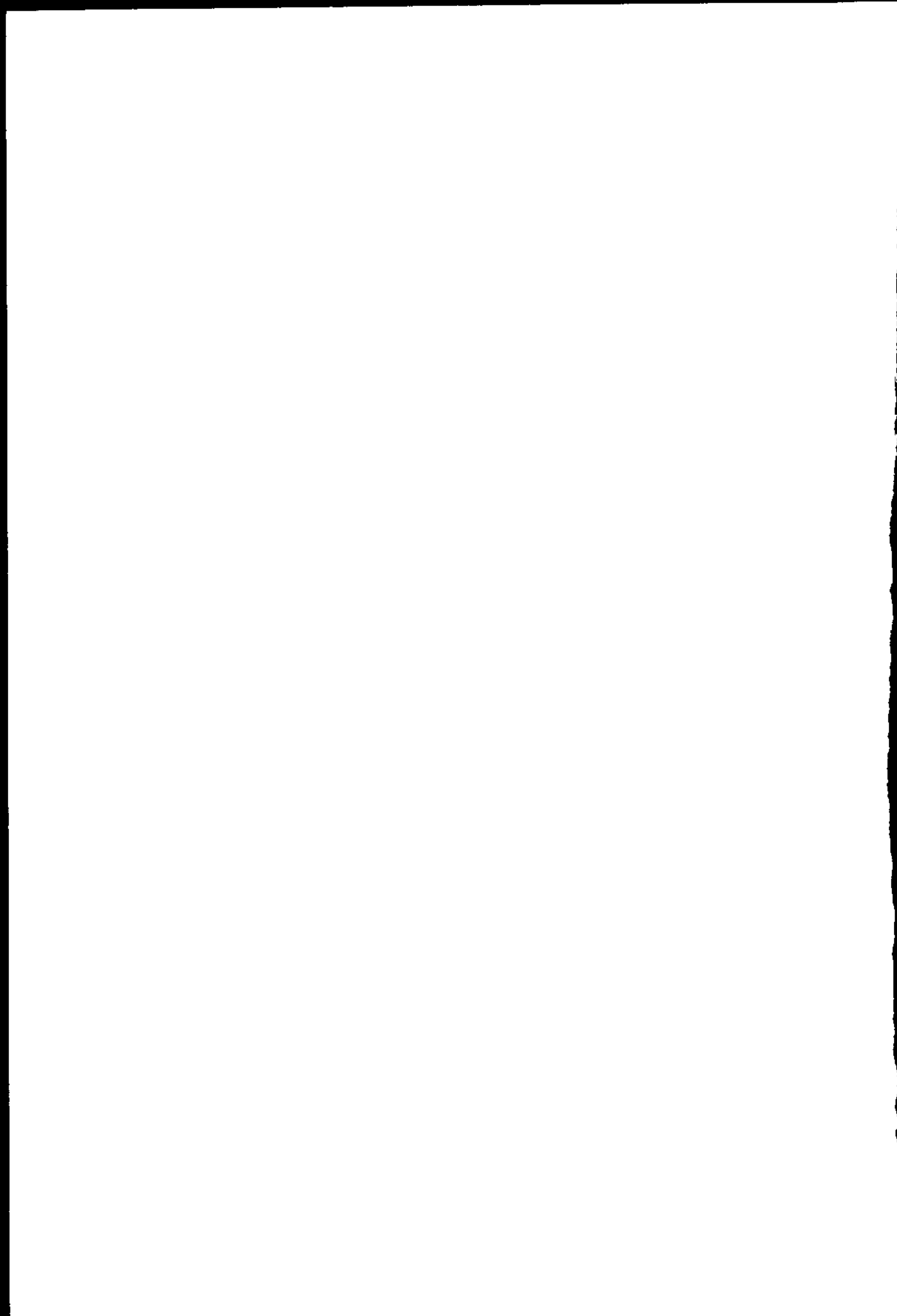
واستمرت هيفاء في دراستها في المعهد وتأخذ دروساً خصوصية وتعطي مكافأتها للمدرسة مضيفة إليها راتب والدها في الوظيفة الحكومية، واستمرت تكمل في الدور الأول وتدرس في العطلة على والدها وتنجح في الدور الثاني، ووصلت إلى السنة النهائية في معهد المعلمات الثانوي، واختبرت في شهادته التوجيهية ؛ فأكملت في الدور الأول بأربعة دروس في الجبر والكيمياء والفيزياء والإنجليزي. وكان وقع إكمالها في الاختبار في الدور الأول أليماً في نفس عدنان، فلم يكن يعرف الجبر ولا الكيمياء ولا الفيزياء ولا الإنجليزي ليقوم بتدريس هيفاء هذه المواد في العطلة كما اعتاد تدريسها مواد يعرفها بعض المعرفة. أما هيفاء فقد بكت وبكت معها أمها التي كانت ترتب بيتها وتنظفه استعداداً لحفلة عائلية تقيمها بمناسبة نجاح هيفاء. فأسقط في يدها من خبر إكمال بنتها، وسأل عدنان هيفاء هل هناك دور ثاني لاختبارها؟ فأجابت أن نعم. ولكن من يدرسها استعداداً للدور الثاني ؟ فقال الأب : المدرسة، تدرسك في بقية أيام العطلة حتى يحين موعد الامتحان. قالت هيفاء ولكن المدرسة تريد نقوداً وأنا لا أعرف منزلها لأحضرها لتدريسي. قال عدنان : أنا أعرف كيف نتوصل إلى بيتها إن جارنا يعرف بيت المدرسة حيث كانت تدرس بنته فيوصلها إلى المنزل مع محرمها في بعض الليالي بعدما تخرج من عندك وتنهي تدريس بنت جارنا، وأما النقود فإنني أنا أبوك أدفعها للمدرسة، الأمر سهل يا هيفاء. وذهب عدنان إلى جاره وطلب منه أن يدله على منزل المدرسة التي كانت تعطي بنته دروساً خصوصية في المنزل. فذهب معه إلى بيت المدرسة وأخبرها أن هيفاء مكملة في الجبر والإنجليزي والكيمياء والفيزياء، وما إن عرفت المدرسة بإكمال هيفاء في الاختبار حتى أجهشت في البكاء فضحك عدنان

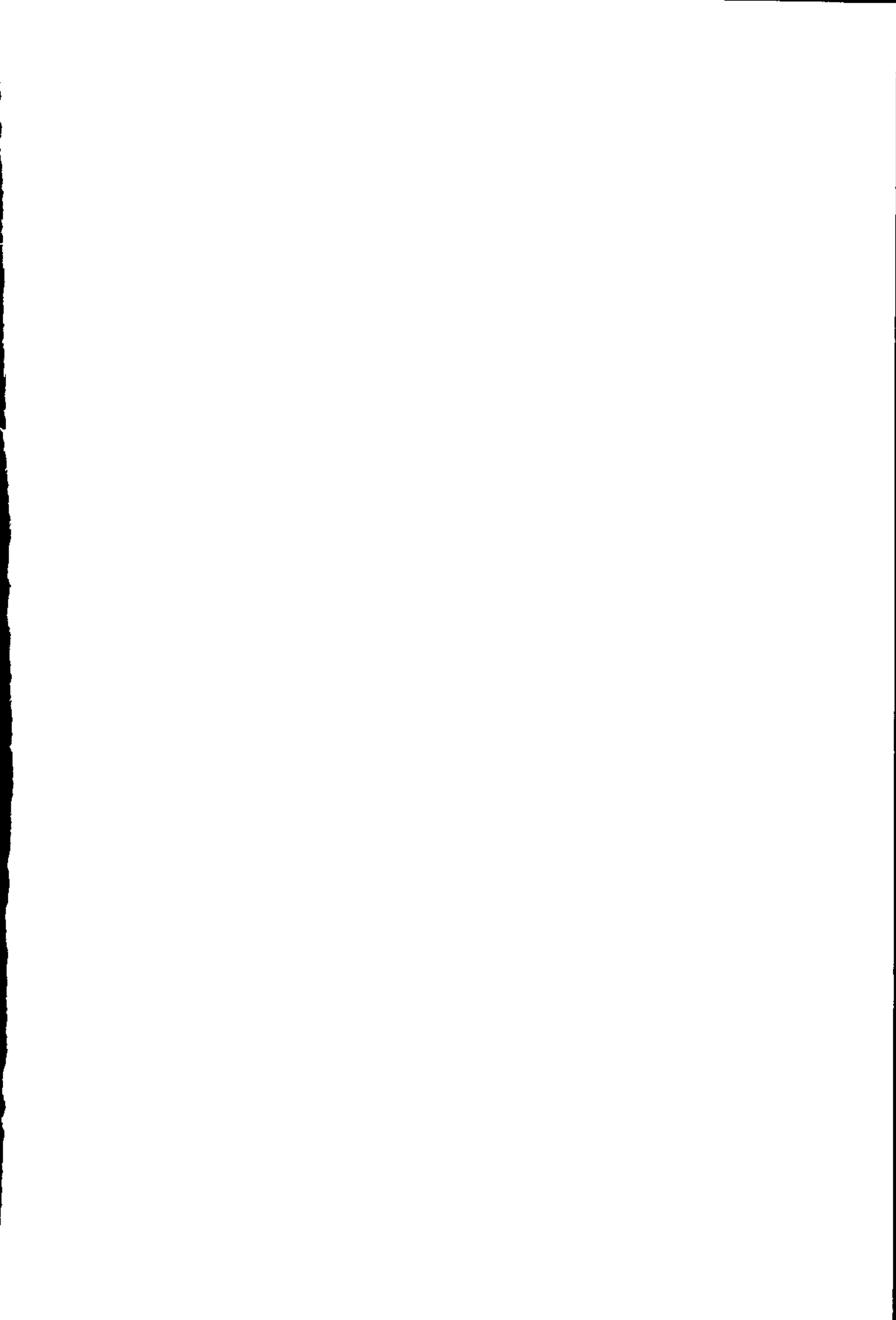
الذي كان مكروباً وقال : أنا في حياتي ما رأيت تلميذاً يبكي إذا أكمل في الاختبار. ولا رأيت رجلاً يبكي إذا أكمل ولده في الاختبار ولا رأيت مدرساً يبكي إذا أكمل تلميذه في الاختبار. ولكنني أرى الفتاة تبكي إذا أكملت وأرى أمها تبكي إذا أكملت. وأرى مدرستها تبكي، أنتن أيتها النساء ضعيفات. قالت المدرسة : التلميذات إذا طرح عليهن السؤال في الاختبار وأدركن أنهن لا يستطعن الإجابة عليه يبكين في صالة الامتحانات التي يتحول اجتماعهن فيها إلى مناحة، ولكن لماذا لا تقول يا عدنان النساء رقيقات العاطفة والشعور، لماذا لا تصفهن بالرحمة، وتترك كلمة ضعيفات. لقد أثبتت المرأة في حرب تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي أنها أشجع من الرجل. قال عدنان لا أوافق. في الجزائر نساء شجاعات، ولكن على العموم الرجل أشجع من المرأة. قالت المدرسة اترك المفاضلة فالرجال والنساء كل عليه واجبات خلق لها. قال عدنان : أنتن رقيقات الشعور، ولكن هل حنانك يدفعك إلى الحضور لتدريس هيفاء في كل يوم حتى يحين موعد الامتحان للدور الثاني ؟ قالت المدرسة أفعل، ولا أريد مكافأة على تدريسها كفاية النقود التي أخذتها منها لتدريسها قبل امتحان الدور الأول لقد سلبتها مكافأتها الشهرية مضافاً إليها ما يماثلها من راتبك. أنا أعرف أن الزيادة من راتبك. يا حرام. وعاد عدنان وجاره، فأخبر عدنان بنته بموافقة المدرسة على الحضور لتدريسها. وبدأت المدرسة تحضر إلى بيت عدنان وتدرس هيفاء الجبر والإنجليزي والكيمياء والفيزياء. وفتح الله على هيفاء بمعرفة هذه العلوم فبدأت تعرف هذه المواد وتستفيد منها ومن تدريس المدرسة. وتسير معها خطوة خطوة في كل يوم. وفي يوم من الأيام وكانت المدرسة تجلس بجوار هيفاء تحتسي كأساً من الحليب ؟

المدرسة لهيفاء لماذا نسبة نجاحكن قليلة ؟ فقالت هيفاء : هذا السؤال بودي لو أجبت عليه أنت ؟ فقالت المدرسة : لا أجيبي أنت. فقالت هيفاء يمكن الاختبارات الشهرية لها دخل في ضعف نسبة النجاح فالناس في مدينة الرياض وفي غيرها يتحدثون عن نسب النجاح في مدن المملكة ويعزون ارتفاع نسبة النجاح في بعض المدن وانخفاضها في بعض المدن الأخرى إلى المعدلات الشهرية. فالمدرسات بخيلات بالدرجات في بعض المعاهد كريمات في معاهد أخرى بالدرجات مما يظهر أثره على نجاح التلميذات في الاختبارات النهائية. واعتدلت المدرسة في جلستها وقالت : أنا موافقة على كل كلمة قلتها، وزادت المدرسة في القول : الحقيقة أن المدرسات يختلفن في تربيتهن وسلوكهن مع التلميذات ويختلفن في القدرة العلمية وفي الجهد الذي يعطينه للتلميذات ويختلفن في تقبل إجابات التلميذات على الاختبارات الشهرية : فمدرسة تريد من تلميذاتها أن تكون الإجابة على السؤال حرفية كما هو في الكتاب المقرر ولا ترضى من التلميذة بغير الإجابة الحرفية، ومدرسة ترفض هذا النهج في الإجابة وتقول لتلميذاتها لا تكونن ببغاوات تحفظن ما تسمعن وترددن ما تسمعن إنني أريد منكن مجهوداً ذهنياً لا يعتمد على الحفظ دون النظر والاستيعاب والاستقراء. وهكذا ترين يا تلميذتي هيفاء أن التلميذة تتعرض لضغوط لا مبرر لها من بخل المدرسات بالدرجات في الاختبارات الشهرية إلى اختلاف مفاهيم المدرسات في تقبل الإجابات. فشكرتها هيفاء وقالت ليتك تنبهين زميلاتك المدرسات إلى ملاحظاتك. قالت المدرسة هذا كلام خصوصي على هامش الدروس الخصوصية لا أريد أن أثيره في المعهد فتغضب المدرسات العزيزات زميلات المهنة والغربة والدراسة. وقامت المدرسة

مستأذنة بالانصراف فودعتها هيفاء إلى الباب الخارجي حيث كان محرم المدرسة في انتظارها. واستمرت المدرسة تدرس هيفاء أيام العطلة. وحان موعد الامتحان في الدور الثاني، فقامت المدرسة بتوجيه عناية واهتمام تلميذتها هيفاء على موضوعات حددتها لمذاكرتها يومياً وليلياً فاهتمت هيفاء بمذاكرتها المواضيع التي نبهت عليها المدرسة، واهتمت بجميع الموضوعات تحسباً للاختبار ورغبة في العلم. وفي مساء يوم كانت هيفاء تذاكر دروسها فدخل عليها أبوها عدنان فقال يا هيفاء لقد طغى الخوف من شبح الامتحان على الرغبة في العلم الأولاد والبنات صاروا يدرسون للاختبار والحصول على الشهادة، أما العلم ولذة العلم والرغبة في العلم فتلك أمور صارت ثانوية. قالت هيفاء الحمد لله إنك أشركت معنا الأولاد. قال هو واقع الأولاد والبنات. وبدأ اختبار الدور الثاني فأدته هيفاء بكل نشاط واستعداد وقدرة وثقة واطمئنان على نجاحها فنجحت في الدور الثاني بجميع المواد التي أكملت فيها وبعد أن أعلنت نتيجة الدور الثاني وعلمت المدرسة بنجاح هيفاء زارتها لتهنئتها ولما شعر عدنان بوجود المدرسة بعث لها مع أم هيفاء بثمانمائة ريال فردتها المعلمة المخلصة لرسالة التعليم، وشكرت عدنان على اهتمامه ببنته هيفاء وقالت ليت الآباء كلهم مثلك أنت أحسن والد في الوجود فقلبك عامر بحب بنتك وجميع أولادك وعامر بمحبة العلم وتقديره. أنت رجل ممتاز تحب العلم وترعى أولادك وبناتك ليت الرجال كلهم مثلك. فشكرها أبوهيفاء وقال ولكن بودي أن تغرسي أنت وجميع المدرسات الثقة في نفوس فتيات البلاد. أنا لا أحب أن أسمع البنت تبكي حينما تكمل في الاختبار أو ترسب في الاختبار وقالت المدرسة يا عدنان الرجال أقوى منا على مواجهة الصعاب والبنون

أقدر من الفتيات على انتزاع النجاح، وإذا لم يكونوا أقوى من البنات على انتزاع النجاح فهم أقوى على تحمل الهزيمة، وانصرفت دون أن تأخذ المكافأة النقدية وعند انصرافها قالت شكراً يا أستاذ عدنان فودعتها أم هيفاء عند الباب وودعتها هيفاء وداع حب وتقدير طابعة قبلة على جبين مدرستها الحنون وقفلت هيفاء الباب بعد أن خرجت منه المدرسة وهي تقول : مع السلامة!

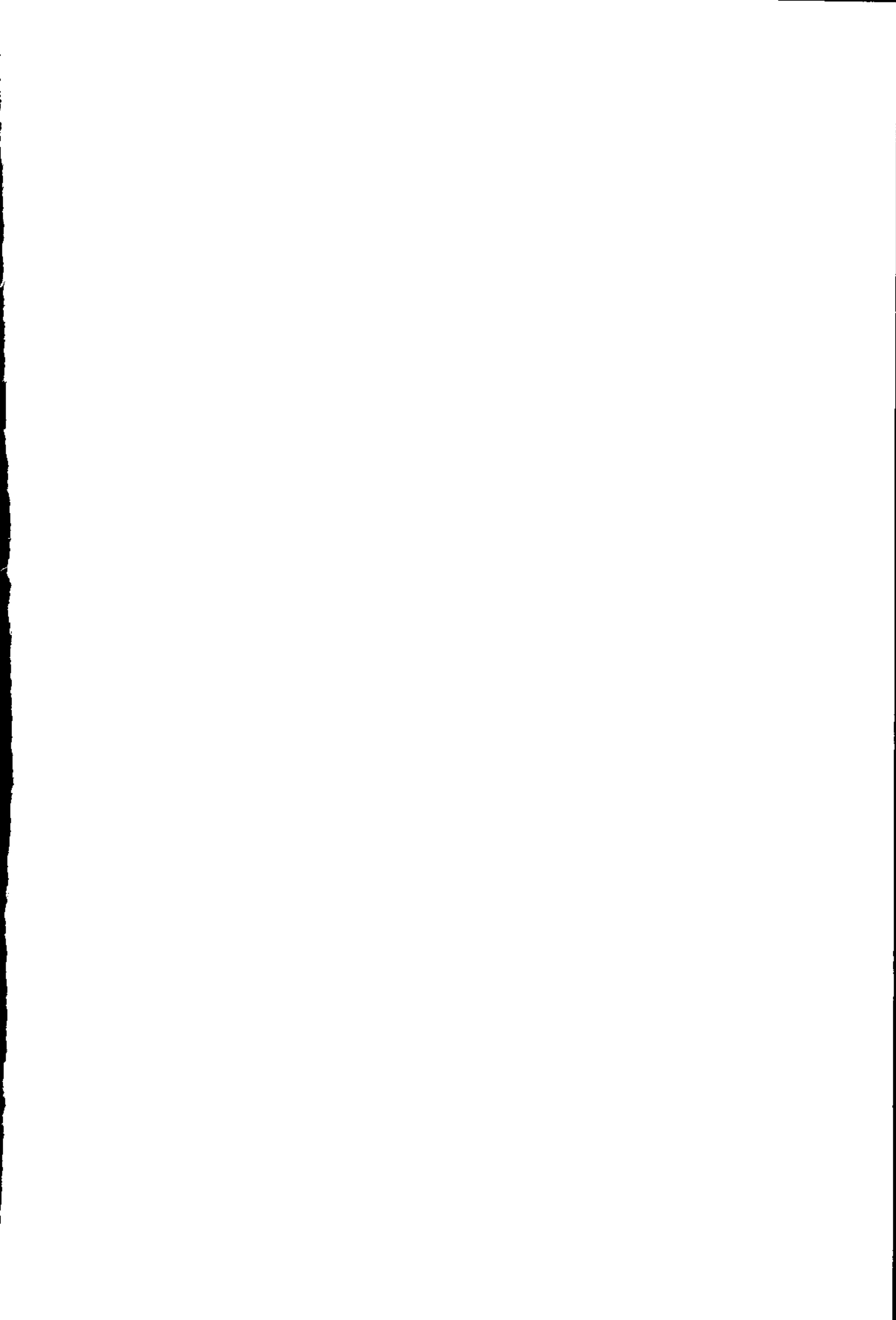




اللهم أرحم الفراخ !

في سنة مجدبة كثرت الطيور على زرع مزارع في ناحية من نجد، تأكل حبه بشره بالغ ضايق نفس المزارع، فقرر التخلص منها، وخطرت بباله طريقة التخلص من هذه الطيور الصغيرة المتكاثرة التي تقتات من زرعه. فقرر العمد إليها وحبسها عندما تأوي إلى بئر مهجورة في جزء من أرض مزرعته، بتغطية فوهة البئر وتركها حبيسة في البئر حتى تموت. نفذ الرجل خطة التخلص وحبس الطيور الصغيرة في بئره حتى ماتت جوعاً. وظن الرجل أن زرعه قد سلم له بموت هذه الطيور. وبعد أيام من تنفيذ خطته أنزل الله على مزرعته وما حولها مطراً غزيراً مصحوباً ببرد كبار توالى على مزرعته حتى أتلفها عن آخرها ووقت هطول الأمطار والبرد بقي الفلاح حبيساً في بيته في المزرعة، وكان يستمع لوقع البرد على سطح داره وكأنه يقع على رأسه، وكان يمضي بين فترة وأخرى يفتح الباب ينظر إلى الفضاء متطلعاً إلى الأفق يتحين وقوف المطر والبرد ليخرج إلى المزرعة يتفقدها، فكان يرى البرد متراكماً حول البيت فيعود إلى المجلس حيث الكانون يمتلئ بجمر حطب العجرم، فيقترب منه لتدفئة جسمه، ولم يكن بحاجة إلى حرارة النار فقد كانت حرارة أحشائه كافية لتدفئة جسمه، ولكنها حركة اعتادها بين الكانون وباب الدار، وكان الوقت ضحى في يوم من أيام الشتاء القارس البرد. ووقف المطر وخف تجمع ما حول الدار من ماء المطر وحبات البرد التي ذابت وتحولت إلى ماء أخذ طريقه إلى منخفض الأرض فخرج الرجل من محبسه إلى حقل زرعه يتفقده بنظرات فاحصة فوجده قد تحطم تحت

ضربات البرد القاسي الذي لم يترك له ما يكفي لقوت أولاده حتى حلول موسم حصاد زرع آخر. ووقف الرجل يجيل نظره الأرض حزيناً كاسف البال، ثم صار يتنقل في الحقل المحطم الذي لاصق قصب زرعه الأرض، وعن بعد لاحظ وجود بقعة من الأرض تقف قصبات سنابلها مرتفعة إلى السماء بكبرياء وعظمة الحياة، فأسرع في خطواته إليها ووقف متعجباً ومستغرباً من بقاء بقعة صغيرة من الأرض فيها قصب زرع لم يصبها المطر إلا قليلاً، وقد نجت من قصف حبات البرد المتلاحقة. ثم قعد على الأرض ومد يديه يفتش بين قصبات الحنطة ويقول في نفسه كانت قصبات حقل زرعي مثل هذه القصبات، كانت قصبات حقلي الكبير الذي تلف مثل هذه القصبات الحية الباقية. وأمعن الرجل الفلاح في فحص القصبات الحية وفوجئ بقدرة الله، فوجئ الرجل وبهت لحظة شاهد تحت قصب الحنطة الباقية فراخ الحمر حية تنبض بروح الحياة ومرارتها القوية وهي من صغار العصافير، إنها قد نجت من المطر والبرد. وهنا زاد حزن الرجل وألمه فقد تبادر إلى ذهنه أن سبب تلف زرعه إهلاكه للطيور الصغيرة التي كانت تغزو زرعه لتحصل على قوتها اليومي. وأيقن أن الله هو الذي نجى الفراخ الصغيرة الباقية في ظل قصبات الزرع تحنو عليها السنابل القليلة بقضاء الله وقدرته وقدره ورحمته وموعظته، وأدرك أنها موعظة له من الله تعالى فاستغفره، ولم يعد يؤذي الطيور ويهلكها، فالله هو الذي يرزقه إذا شاء، ويأخذ منه ما أعطاه إذا أراد ويحمي من المطر والبرد الفراخ الصغيرة تحت ظل السنابل المتعانقة المتحابة الحانية على فراخ الطيور بأمر الله.



إباء العربي وعزة نفسه !

ركبت السيارة في الرياض متجهاً إلى مكة المكرمة يوم ١٢/٥/١٣٩٣هـ وكان يقود السيارة مالكها الذي قد تخطى الأربعين من عمره، وكان الوقت ضحى، وأدركت أن قائد السيارة هو مالكها الذي قد ألف اجتياز الطريق بين مكة والرياض وأن اسمه لحيان من سكان شمالي نجد مما وراء القصيم من جهات حائل. وأدركت حرصه على سيارته فهو لا يريد السرعة، ولا يريد السير بها في شدة الحر نهاراً. إنه يريد أن يظل مع سيارته وركابها في مكان ظليل حتى يبرد الجو وتبرد الأرض ولكنه مع ذلك ومع التزامه بالسفر لا يمانع عن السفر في شدة الحر قلت له على رسلك فالعجلة مذمومة، ولا تجاملنا فتضر بسيارتك قال وأضر بكم فأعرضكم لحرارة الصيف ولكن ما الحيلة وكلكم تريدون السفر، وأنا أتفق معك فيما يتعلق بالسيارة التي يهمني أمرها ولكن إذا سارت السيارة ببطء فإنها لا تتأثر بالحرارة. قلت : لك رأيك يا لحيان ! ولكنه ينسى حرارة الجو مع قوة السيارة ومع أمله في استلام الأجرة بعد الوصول إلى مكة. وانحدرت السيارة مع طريق ووصلت بنا إلى السهل مخلفة طريقاً وراءها يتحدث عن العرب وعن أمجاد العرب وعزة العرب وإباء العرب. قلت للسائق فهمت منك أنك جبت رقعة كبيرة من أرض جزيرة العرب وخالطت العرب بادية وحاضرة فحدثني عن شيء مما مر بك من أحوال وشيمهم. قال : أحدثك عن عزة النفس عند العربي وعن إبائه وعن شجاعته. قلت أتحفني بما عندك. قال : كنت في وسط عرب الجزيرة فشاهدت قاتلين من نوع يتمثل الإباء العربي وعزة النفس العربية والشجاعة المتناهية. إنهما رجل أعمى وصبي صغير السن، الأعمى قتل رجلاً قوياً مبصراً.

والصبي قتل رجلاً قوياً مبصراً. قلت أعوذ بالله من الجريمة والإجرام.
قال : إنها قسوة الحياة، وظروف الحياة، بل وعزة النفس وإباء الضيم عند الإنسان العربي. قلت هات ما عندك. فقال : كان شيخ عربي يحمي رجاله حمى لإبله تسيم وترعى في رقعة من الأرض واسعة قد زانها العشب وتنوعت صنوف النبات فيها لا يشاركها في الرعي فيه غيرها. قلت مثل حمى كليب. قال : حمى وكفى. فجاء الأعمى والصبي بإبل ينتجعان لها المرعى الجيد، وكان الصبي حدث السن لا يعرف الطريق، ولا يهتدي للمرعى فكان الأعمى يرشده للطريق ويهديه وإبله إلى المرعى، ووصلا بإبلهما الخمسة عشر إلى حول الحمى فتركا الإبل ترعى واستظل الرجل الأعمى بظل شجرة وبقي الصبي مع الإبل التي استأنست بالمرعى حتى وقعت في حمى الشيخ فلمحها حراس إبل الشيخ الأمير العربي فاتجه أحدهم للصبي فعاتبه على دخول إبله للحمى فقال الصبي : أنا لا أعرف الطريق ولا أعرف الحمى ولكن هذا الاعتذار لم يشفع له عند حارس الحمى فضربه والصبي يحتج ثم صاح به الصبي قائلاً : إن خالي هو الذي جاء بي إلى هنا وهو رجل أعمى فقال الحارس : وأين خالك ؟ فدله الصبي عليه. وذهب الحارس إلى الأعمى فعاتبه على دخول إبله لحمى الأمير، ثم اقترب الحارس من الرجل الأعمى وضربه، فنهض الأعمى يهم بالإمساك بالمعتدي عليه ولكنه يتحسس وجود الرجل بسمعه، فاقترب منه الحارس ودفعه على الشجرة التي كان يستظل بها فوخزته بأشواكها وعلقت بعض أشواكها بملابسه، ثم أمعن الحارس في ضربه والأعمى يتحين الفرصة للإمساك به فاستطاع الإمساك به فقيده بوضع يديه مربوطتين خلف ظهره. لم يكن الحارس يظن أن هذا الأعمى يتحرك ويمسك به، كان يظنه ضعيفاً. فأخرج الأعمى سكيناً حادة كانت معه

وقد بطنه بها، وتركه يتضرج بدمائه وعاد إلى ظل شجرته كأنه لم يرتكب جريمة القتل وبعد دقائق جاء الصبي يسوق الإبل فاقترب من خاله وأخبره بالضرب الذي نال منه فقال الأعمى لقد قتلت الحارس الذي وصل إليّ وضربني وأهانني، وبينما كان الرجل وابن أخته الصبي في حوار دامي إذا بحارس آخر مقبل عليهما شاهده الصبي فأخبر به خاله. فقال الرجل الأعمى أين الفتيل؟ قال معي وكان الفتيل نوع من السلاح القديم عتاده قطعة رصاص وملح بارود. قال الأعمى إذا قرب منك فاقتله. اقتل الرجل بالبندق. فاقترب الرجل الحارس الذي جاء يبحث عن صاحبه الذي تأخر عند صاحب الإبل التي اعتدت على الحمى. فاقترب الرجل وقبل أن يسأل عن رفيقه أطلق عليه الصبي النار من فوهة الفتيل فأصابته بصدغه الأيمن فخر صريعاً يتشحط بدمائه ثم لفظ أنفاسه. وخيم الصمت على الأرض بعد أن رددت الجبال أصداء الرصاصة القاتلة. وهنا قال الأعمى يا ولدي هلم بنا نتوجه على رئيس هؤلاء الحراس إن كان لهم رئيس ولعله صاحب الخيمة التي تراءت لنا من بعيد لنقدم أنفسنا إلى الحاكم لا إلى رئيس الحراس. فجمع الصبي إبلهما المتفرقة ثم أخذ بيد خاله الأعمى وأركبه على ظهر ناقته التي تعرفه وتسير به سيراً وئيداً فحط عليها ثقله الجسمي الذي لم يبال بما وقع له من إزهاق حياة رجلين في إزهاقهما إزهاق لحياته هو الآخر، ولكن حياته لا تساوي شيئاً في نظره مع الذل والعسف والاعتداء على عزة نفسه وإبائه. كان الرجل الأعمى هادئ النفس ساكن الجوارح كأنه لم يرتكب جريمة قتل إنسان ويأمر بقتل إنسان آخر فيطاع. وسارت الإبل يحدوها الصبي بعصاه تواكب سير ناقة خاله التي تتوسط الإبل، واتجه الصبي بالإبل إلى حيث أمره خاله إلى خيمة كبيرة كان يظنها

بيت رئيس الرعاة حراس إبل الحمى وأرض الحمى. ووصل إلى الخيمة التي هب صاحبها يتلقى الضيوف كما ظنهم فأناخ الصبي راحلة خاله عند مدخل الخيمة فالتفت حولها الإبل تقف متفرقة وكأنها قد أدركت رغبة صاحبها بالتجمع حول الخيمة التي لا تتسع لاحتمال ارتكاب مثل هذه الجريمة. ودخل الأعمى إلى الخيمة يقوده الصبي دون أن يقدم السلام فظنه صاحبها في حالة إعياء أو في غاية من العطش إلى الماء. وحياه صاحب الخيمة وحيا الصبي بقوله: مرحباً بالضيوف فرد عليه الأعمى لسنا لك بضيوف لقد قتلنا «ربعك»، أي شيء تقول ؟ هكذا رد عليه صاحب الخيمة رافعاً صوته. فرد عليه الرجل الشجاع الأعمى : أقول ضيقتم علينا البر وحرمتمونا من المرعى لإبلنا فأين تريدون منا أن نذهب بإبلنا. لقد قتلنا ربعك بعد أن ضربوا الولد الصغير وضربوني وأهانوني ودفعني واحد منهم على الشوك. حديتونا على الشر ونحن لا نريد الشر. الشر لا نريده، ولكن هذه أعمالكم، والآن أنا مسلم نفسي للحاكم ولست مسلماً نفسي لك يا شقير. لا حول ولا قوة إلا بالله هكذا قال شقير. وزاد بليتمونا بأعماركم أعوذ بالله. وتربع الأعمى في جلسته داخل الخيمة كأن لم يحدث شيء، وحوله الصبي ابن أخته الذي يجلس قريباً منه ويتابع بنظراته لإبل خاله وإبله. وكأنهما ضيفان لصاحب الخيمة لو لا كلمات الاحتجاج والاعتراف بالقتل التي فاه بها الرجل الأعمى وكلمات الاعتراض التي رفع شقير بها صوته. وخرج شقير من خيمته ورفع طرف عباءة ينادي به رجاله ورفع صوته يناديهم فحضروا لديه فصاح بهم هذا الأعمى قتل صاحبيكم وذكر اسميهما ولم يكن يعرف أن الصبي قد قتل أحدهما، ثم أمر رجاله بالذهاب بالأعمى إلى أمير المويه ليوصله إلى إمارة مكة المكرمة ليقضي الحاكم الشرعي بأمرهما ما

يستحقانه بعد أن عرف أن الصبي مشارك للأعمى بالقتل. وخرج الأعمى من الخيمة يلتمس الطريق وأمسك بيد الصبي ليركبه على ناقته ولكن الحراس دفعوا الصبي عنه وربطوا يديه وربطوا يدي الصبي ونقلوهما على جمل واحد وركبوا هم على إبلهم واتجهوا إلى المويه وسلموا الأعمى والصبي قائلين لأمير المركز هذا الأعمى قتل حارسين من حراس الحمى ولم يقم أمير المويه بشرح قضيتهما لأمير مكة بل اكتفى ببعثهما إلى مكة تحت حراسة مسلحة ومعهما كتاب يدل على أنهما قتلا حارسين دون الإشارة إلى ملابسات وظروف القتل. كانا مجرمين ارتكبا جريمة القتل دون النظر إلى اعتبارات وملابسات وظروف. إباء وعزة نفس مدلولان لم يدخلا في صلب القضية. وأحيلا إلى جهة حكمت عليهما بالموت فنفذ فيهما القصاص بقتلهما على مشهد من الناس عند إدارة الشرطة في مكة. ترى ماذا قال الأعمى في دفاعه عن نفسه بإقدامه على قتل الرجل؟ وأمره للصبي بقتل الآخر. وماذا قال الصبي؟ وهل كان الأعمى يطمع بالعفو.

١٣٩٣/٥/١٩هـ

وغداً تشرق الشمس

ركضت بعمرك إلى حيث لا تريد، وهم يعملون لراحتك، ويخدمون المجتمع. قال : لكن التسعين عاماً كيف طارت؟! فأدركت أن يأساً يحاول أن يتسلل إلى ذاكرة الرجل. فقلت له : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة إن كان لك مال زكوي، وتصوم رمضان، وتحج إلى بيت الله الحرام، وأنت ولله الحمد على خير من دينك، وقد أديت أركان الإسلام. والإسلام دين يسر ودين خير وفلاح. وقلت له: أحسن ظنك بالله. إن الله كريم يا رجل. قال عبد العالي وتذكرت تاريخ حياة الرجل المغامر الشجاع المهاجر إلى هذه البلاد من شرقي آسيا من بلاد إسلامية قبل خمسين عاماً، وطلب العلم في مكة المكرمة ووجد فيها زميلاً له في الدراسة يوم كانا في مصر قبل وصولهما إلى الحجاز ففتح له الطريق إلى عمل حكومي ديني فترة من الزمن، ثم انتقل إلى عمل في مطبعة في مكة المكرمة، وعمل في مكتبة في مكة بعد ذلك واشتغل بالتدريس لفرع من فروع الفقه الإسلامي، ولعله ينال أجر العلم، وتعليم العلم، فإن أجر العلم النافع لا ينقطع حتى بعد وفاة المعلم. وتقاعد الرجل عن العمل الحكومي وليس عليه ضيق ولا حرج في دنياه فهو يسكن في دار فسيحة، ويأكل أطايب الطعام. ترى لماذا يضيق الرجل بدنياه وهو بخير؟! وانشغل عني وانشغلت عنه بتفرق الجمع قبل أن أذكره بقراءة سورة «يوسف» وقراءة سورة «الزمر» لعله يجد فيهما ما تطمئن إليه نفسه وتستريح من وصب الحياة ونوازع شواغل النفس.

وغداً تشرق شمس جديدة تبدأ بصفحة امتداد لحياة الرجل،

ولكنها قد لا تنير بضوئها جوانب نفسه، وعسى الله أن يجعل له نوراً من أمل يستمتع به في حياته، وإلى أن يلقى ربه، فالأمل مصدر قوة، والأمل باعث سرور تشرق في جوانب النفس البشرية.

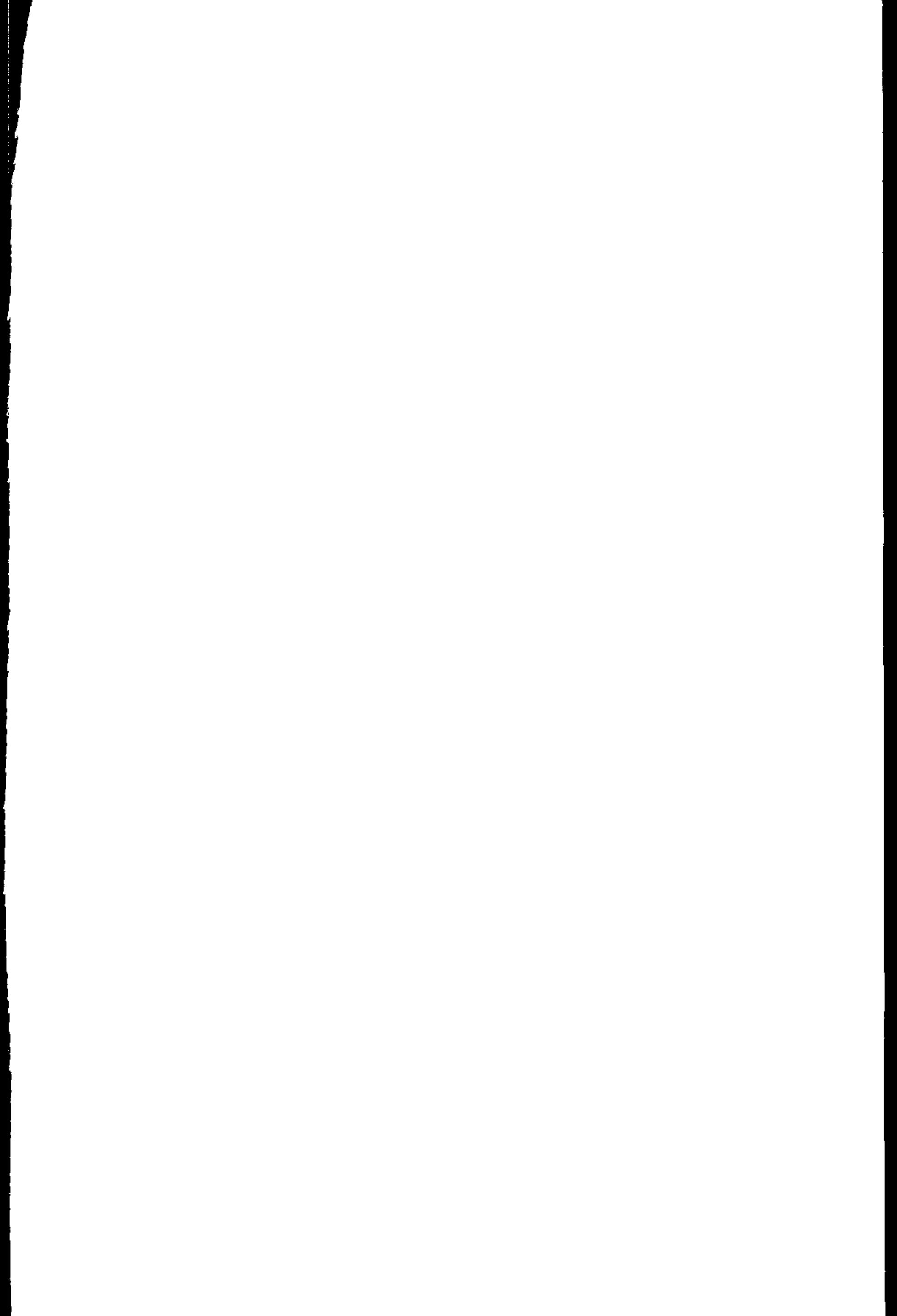
١٣٩٣/٧/٢٧هـ

موظف بائس !

قال عبد العالي : أعرف أن زكياً رئيس أسرة صغيرة مكونة منه ومن زوجة وثلاثة أولاد أكبرهم موظف وراتبه كبير والآخران من أولاده في الدراسة، وأن زكياً متقاعد عن العمل بدون راتب، وهو رئيس الأسرة بحكم أبوته. وبأن الولد الكبير الموظف من أولاده لم يتزوج رغبة في القيام على شؤون أهله وتعليم أخويه. جلس الشيخ زكي رئيس الأسرة الذي ترك الخدمة الحكومية لكبر سنه يتحدث إلى جاره وأنا أسمع وهو لا يريد أن يخفي حديثه عني. قال الرجل المتقاعد : طفش زهقانين، تعبانين، السيارة أكلت راتب الولد يسدد أقساطها، وأتعبته، والله لا يوريك انصدمت مرة وسامح اللي صدمها وراح يصلحها بمبلغ وقدره، والمصاريف أهلكتنا، المويه والكهرباء، قطعوا المويه عنا. الخزان ناشف مرة ما فيه ولا قطره ماء، حالتنا تعبانة. تحدث الرجل بلهجة عامية محلية لم أشأ أن أغيرها عن حقيقتها التي نطقها على سجيته يفصح عن آلامه، يعصر الألم قلبه فتظهر آثار الآلام معبرة على قسمات وجهه، وتكاد الآلام تخفي بريق الأمل في عينيه. والمستمع لحديثه من كبار الموظفين يسمع، ويعقب بالتوجع على كلام الرجل التفصيلي عن حالته. فقلت في نفسي «الموظف بائس»! إذا كان ولده موظفاً يتقاضى أكثر من ألف وخمسمائة ريال مرتباً شهرياً من الدولة، وأسرته صغيرة ومع ذلك حالته تعبانة، فكيف بالموظف الذي راتبه قليل وعائلته كبيرة كثيرة العدد! كيف تكون حالته المادية ويسره وتيسيره على أهله وولده. وفكرت في حال الموظف المعني بمصاريف الأسرة الصغيرة، وأدركت أنه يستأجر بجزء كبير من

مرتبه داراً ويصرف جزءاً من مرتبه على الكهرباء والماء والهاتف ويبقى الجزء الأصغر من راتبه لمصاريف البيت وقسط السيارة ومصاريفها. وهذا الضيق المالي هو الذي لمسته الدولة في موظفيها - سمه ضيقاً، أو سمه بؤساً، سمه ما شئت من تسمية تدل على العوز أو الفاقة أو الحرمان. فقد أدركته الدولة فجاء المرسوم الملكي بتعديل سلم الرواتب بزيادتها، وزيادة بدل التنقل. وجاء الأمر السامي لاحقاً بتخفيض سعر الكهرباء في عدد من مدن المملكة صغيرة وكبيرة. فهل تتحمل الدولة عبء مصاريف الماء والهاتف في الرياض العاصمة وأخوات الرياض المدن الكبرى في المملكة حيث يتوافد الناس ويجتمعون طلباً للعمل، وطلباً للعلم. ليتها تعمل ولو بتخفيض سعر ثمن الماء وتنزيل مقابل المكالمات الداخلية المنزلية وتكتفي برسم سنوي معقول على الاشتراك، فالدولة التي تهتم بتخفيض سعر الكهرباء جديرة بتخفيض سعر الماء وأجور الهاتف لأنها قادرة على التخفيض وراغبة في تخفيض مصاريف مرافق يحتاجها الناس في حياتهم. مضى عبد العالي يتحدث عن حكاية الموظف. وسكت عبد العالي لحظات يرشف ما في قدح القهوة. وبقي من في المجلس يستدرون شيئاً ينتظرون أن يقوله : قال عبد العالي : الحكاية وما فيها أن هذا الموظف غير معتدل في نفقاته ومصاريفه كان عليه أن يستأجر داراً على قدر دخله السنوي، وكان عليه أن ينتظر في شراء السيارة، وكان عليه أن يقتصد في نفقته. واستمر عبد العالي يتحدث : ما أحسن الاعتدال والتوسط في الأمور والتوسع في النفقة على قدر الدخل : إنها نصيحة ثمينة ولكن من يكيف ذهن هذا الموظف لتقبلها.

١٣٩٣/٧/٢٧هـ



من أبها إلى القنفذة

عبد العالي موظف في وزارة المواصلات تجاوز الأربعين من عمره ،يؤدي في مكتبه عملاً عادياً مثل كثير من زملائه ؛ قليل الأسفار للعمل في شؤون وزارته ؛ ومع ذلك قيل له : إنك مسافر بمهمة رسمية، وتلقى عبد العالي أمراً من وزارته بالسفر إلى أبها العاصمة الإقليمية لمقاطعة عسير للقيام بتحقيق في قضية غير مهمة وإن سميت «مهمة رسمية». وحزم أمتعته وتوجه إلى مطار الرياض وحجز بالطائرة المسافرة يوم ١/٣/ ١٣٨٧هـ وحضر في اليوم الثاني إلى صالة المطار وسلم أمتعته إلى موظف المطار، وجلس في الصالة، وإذا بشاب من بلاد عسير يسلم ويعرف بنفسه : محمد ... ويناول عبد العالي رسالة من والدته ويقول : يا بختك البلاد سايلة، ممطرة، جاءتهم رحمة من الله، ويردف عسى معك ملابس صوف هناك برد، بلادنا باردة ليست مثل الرياض. فطمأنه عبد العالي بقوله : إنني أعرف بلادك في ذهني وكأنني قد عشت فيها، وقد أخذت ملابس صوف كافية، فودعه محمد وهو يبتسم إنه يغبطه على زيارة بلاده أبها. ونادى موظف المطار ركاب الخميس بالدخول إلى ساحة المطار حيث تنتظر الطائرة ركابها. ودخل إلى ساحة المطار مع الركاب يلبس مشلحاً متيناً مثل الركاب الآخرين وصعد إلى الطائرة وجلس على مقعد وأخذ ينظر من حوله يتعرف على الركاب وإذا هو يرى شاباً من أهل الرياض إنه مسافر إلى مقاطعة عسير، لفت نظر عبد العالي وجود امرأة كبيرة السن سافرة الوجه وهي غير مكترثة بالسفور فهي عجوز والسفور غير غريب عليها يعتقد أن المرأة في بلادها غير متحجبة. وبعد ساعات

حطت الطائرة في مطار الخميس ونزل الركاب وإذا بشاب جميل الصورة عليه أثر التعليم والتأدب يسلم على عبد العالي ويقول له : تفضل معنا إلى البيت وعرف عبد العالي أنه ابن تلك العجوز السافرة والفرق بين ملابسها وملابسه ووضعها ووضعه إنها تمشط شعرها بالحناء وتلبس ملابس لا يتدخل في شرف الحضارة والشاب يلبس ملابس حديثة على مجتمع والدته، فسأله عبد العالي أين تسكن أنت؟ قال : في الخميس، قال عبد العالي ولكنني قاصد أبها فأشكرك، وأعتذر عن الذهاب معك. قال الداعي : إن الخميس قريبة من أبها ويمكنك النزول إليها متى شئت دون مشقة. فكرر عبد العالي اعتذاره وقبل الداعي الشاب المضيف الكريم عذره إنه عربي من هذه البلاد.

استأجر عبد العالي سيارة صغيرة من مطار الخميس إلى أبها وكان الجو بارداً في المطار وكانت تهب رياح باردة تختلف كثيراً عما ألفناه أيامنا هذه في جو الرياض ومناخ الرياض، واشترط عبد العالي على السائق البقاء معه حتى يتم استئجار دار للسكنى في أبها وكان السائق هو الآخر كريماً فوافق ووضعت الأمتعة في السيارة وركب عبد العالي وتحركت السيارة من المطار إلى الخميس فأبها، وكانت في ذهن عبد العالي صورة لمدينة أبها فقد قرأ عنها وعرف عدداً من أهلها واطلع على صورة لها كما أنه يعرف شيئاً عن تاريخها القديم والحديث وأخذت السيارة طريقها مع خط معبد مسفلت وفي قرابة منتصف الطريق التفت السائق يسأل عبد العالي من أين هو قادم؟ قال : من الرياض، وهنا سأل عبد العالي سائق السيارة : أراك تحمل سلاحاً، فهل في منطقة عسير خوف؟! قال السائق : الحمد لله البلاد آمنة، والطمأنينة في هذه البلاد، وتلعثم السائق وهو يريد أن يؤكد أن الأمن لا يحوجه

لحمل السلاح ولكنها عادة اتخذها من عادات العرب يحبون السلاح.
ولم ير عبد العالي في الخميس ما يلفت النظر، بيوت حجرية قديمة وبيوت طينية قديمة وبيوت حديثة متناثرة هنا وهناك، وسكان قليلون كما يبدو وإنها مدينة ناشئة نشطت من القديم إلى الحديث في العمران ومعيشة السكان بتأثير وجود قسم من الجيش السعودي والموظفين الحكوميين ووجود خدمات حضارية قامت الدولة بتأسيسها. والخميس سوق يجتمع فيه الناس كل يوم خميس من كل أسبوع، وتنسب إلى شيخها ابن مشيط فيقال : خميس مشيط وهي «بلاد شهران» وجزء من مقاطعة عسير في الوقت الراهن وأبها عاصمة منطقة عسير في عهد آل سعود وفي عهد الأتراك وفي عهد آل عائض. وفي الخميس مطار عسكري وقاعدة عسكرية، وبعد دقائق من سير السيارة بين الخميس وأبها قال السائق هذه قرية حجلاء وتذكر عبد العالي أنها هي الأخرى من بلاد شهران وتذكر أنها قد جرت فيها وقعة بين جيش الملك عبد العزيز آل سعود بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود انتصر فيها الجيش السعودي وواصل زحفه على العاصمة أبها، وقرية حجلاء ليست ظاهرة على الخط ولكنها قريبة منه وبعد دقائق بدت بيوت أبها بعضها في سفح الجبل وبعضها منخفض من الأرض وأخذت السيارة تنحدر إلى أبها ووقفت امرأة تلوح بيدها وحولها صبي يلوح هو الآخر بيده إنهما يطلبان النزول عندهما للضيافة. إنها تدعونا للنزول في دارها لعلها قد اعتادت استضافة بعض من يمرون بها والقيام على خدمتهم بإعداد الطعام في منزلها والاستراحة في دارها. إن منزلها عشة. وهبطت السيارة من منحدر داخلة مدينة أبها. إنها مدينة صغيرة ولكنها عاصمة إقليم ولها مستقبل ولكن نموها يبدو بطيئاً أترى

وجود المطار في الخميس أثر عليها. أم أن وجود القاعدة العسكرية في الخميس أضر بمصالحها. وأوقف السائق السيارة عند رجل يقف على عتبة باب منزله وسأله عن بيت للتأجير فأشار عليه بسؤال عمدة «حارة القرا» وسمع عبد العالي كلمة «القرا» فقال في نفسه لعلها قرى الضيف. وتحركت السيارة وسارت حتى أوقفها السائق عند بيت العمدة وطرق عليه الباب وسأله عن بيت للأجرة فدله على بيت صالح للسكنى إنه فرغ من المستأجر قبل أيام واستأجره عبد العالي لمدة بقائه في أبها دون تحديد المدة واكتفى بالاتفاق على تحديد أجرة الشهر والمحاسبة عند الخروج منه ووافق صاحبه، وناول السائق أجرته وتطوع السائق للمشاركة في نقل المتاع إلى المنزل. وإذا بشاب قمحي اللون سريع الحركة يعدو ويأخذ ما في يد عبد العالي من متاع ويوصله إلى المنزل وقبل أن يخرج من البيت قال الشاب أنت من جماعتنا أهل نجد، ويحيي عبد العالي وينصرف. وإذا بشاب آخر يدخل ويسلم ويرحب ويعرف بنفسه : عبد الله الشهراني. ويسأل هل أنت مفتش من وزارة المعارف؟ لا.... ويدخل عبد العالي يتفقد المنزل فيجد فيه وعاءاً للماء، ثم يعود يسأل عبد الله الشهراني عن استحضار الماء، إنه بالقربة والزفة الماء رخيص الزفة بربع ريال، ويمر سقاء فيناديه عبد الله الشهراني : صب زفة ماء هنا، ويأتي السقاء الزفة، ويتفق معه عبد العالي على إحضار زفة ماء كل يوم، ويسأل عبد العالي عن الماء مرة أخرى : ألا يوجد ماء من آبار المزارع البعيدة عن البيوت ، ويتفق مع السقاء على إحضار زفة ماء من سيارية يحمل عليها الماء من مكان بعيد. غربت الشمس فذهب عبد الله الشهراني وأحضر سراجاً وضعه في مجلس دار عبد العالي فملأ الدار نوراً وأطل بنوره من النافذة مدلاً على سراج البلدية المعلق عند

باب مأمور مستودع البلدية محمد تركي. كان عبد العالي لم يأكل طعام غداء وبعد صلاة المغرب خرج عبد العالي متجهاً إلى السوق إلى المطعم، وفي الطريق اعترضه صبي وسلم عليه فسأل الصبي عن اسمه فرد : علي السويد فقال عبد العالي: من أهل نجد من بلدة جلاجل؟ فرد الصبي بالإيجاب وركض الصبي إلى أهله ويصيح : هذا رجل من جماعتنا ! فلحق أبو الصبي بعبد العالي وسلم عليه وعرض عليه القهوة فقبل عبد العالي وذهب معه إلى بيته وقدم له أولاده يسلمون عليه، وقدمت القهوة المخلوطة بالزنجبيل على خلاف عادة أهل نجد فأهل نجد لا يضعون الزنجبيل بالقهوة وإنما يكتفون بالقهوة مع الهيل ويضعون الزنجبيل مع الشاي في بعض الأحيان وقدم الطيب بعد القهوة وبعد تناول القهوة أخذ عبد العالي طريقه مرة أخرى إلى المطعم ودخل إلى صالة المطعم وعرف أن الطباخ صومالي فناداه « وريه، وريه »، وجاء الطباخ مسرعاً إنه لم يسمع هذا النداء في أبها وقال : أمرك : أنت من أهل القصيم؟ نعم، وسأله عن الطعام الموجود لديه، إنه لحم وخبز وإن الخضار غير موجودة في أبها، فطلب صحن لحم وخبزة، أكل ما قدم له ثم سأل عن الشراب فقال يوجد حليب وشاي، وإذا برجل يدخل المطعم ويجلس بجوار عبد العالي ويسلم ويسأل عبد العالي عن بلده فقال : أنا نجدي من مدينة بريدة. قال : أنتم يا أهل بريدة تحبون بلادكم قال عبد العالي ونعتز ببلادنا. وسأل عبد العالي الطباخ عن كلمة ورية التي يعرف أنها كلمة نداء ولا يعرف معناها، فقال : إنها يا أخ. وسأل عبد العالي الطباخ عن الحساب ولكنه رفض أن يأخذ الحساب فوضع عبد العالي على الطاولة ما اعتقد أنه حسابه وانصرف وهو يقول : خذ مشكوراً حسابك. وخرج عبد العالي يتجول في أبها وهو

متعب حيث لم يسترح طول النهار ولكنه أحب أن يرى جزءاً كبيراً من المدينة قبل أن ينام وكانت شوارع وأسواق أبها وساحاتها خالية من نور الكهرباء وكذلك بيوتها، وفيها أنوار سرج «أتاريك» البلدية تنتشر في أجزاء من أبها. وعاد بعد أن تجول في شوارع أبها القريبة من منزله، وتجول في سوق أبها التجاري ؛ عاد إلى منزله يستلهم نور السراج «الأتريك» ووشوشته شيئاً من تاريخ أبها. وفرش فراشه وألقى بجسمه المتعب على الفراش وراح يستعيد ويستذكر تاريخ مدينة أبها التي شغلت الأتراك والشريف حسين وآل عائض والإدريسي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وتذكر ذلك العربي الشجاع الذي قال للقائد التركي أنتم في تركيا ما عندكم عيش بر ولما رد عليه التركي القائد بأن تركيا فيها عيش قال : إذن لماذا تأتون إلى بلادنا؟! ومع مناجاة تاريخ أبها نام عبد العالي حتى مطلع الفجر حيث استيقظ وتوضأ وصلى صلاة الصبح. كان البيت خالياً إلا من الفراش والملابس والأتريك والماء فلا طعام في البيت. ومع إيذان الشمس بالإشراق خرج عبد العالي على مطعم الصومالي الذي أصبح عليه تقديم ثمن وجبة العشاء في الليلة الماضية. فقال عبد العالي : أنت جئت من بلاد بعيدة تبحث عن رزقك في جزيرة العرب، وليس من الإنصاف أن تقدم طعاماً بدون ثمن، ويكفي أنك كنت موجوداً في الليلة الماضية فقدمت لنا طعاماً من خير ما تجد في مطعمك. وطلب عبد العالي طعام إفطار بيضاً مخلوطاً بالطماطم فقال الصومالي : شكشوكة؟ فرد عبد العالي أريد بيضاً مخلوطاً بالطماطم وسمه ما شئت. وجاء بصحن البيض مخلوطاً بالطماطم وقدمه وأكل عبد العالي ثم شرب كأس شاي ونقد الثمن وانصرف وغير ملابسه وأخذ حقيبة الأوراق واتجه إلى المكتب الحكومي ليبدأ مهمته

فوجد المكتب مقفلاً وطرق الباب فانشق عن رجل رث الملابس وبالسؤال عن عمله فهم أنه سقاء. يبدو أن السقاء في أبها يحتل مركزاً في نفوس الموظفين يعطيه البقاء في دائرة حكومية بعد انصراف الموظفين. إنه يسكن في الدائرة إنه يفيد للحراسة .ونحن في بلد تحرسه عناية الله بتنفيذ شرع الله، إنها نعمة كبرى. ودخل عبد العالي إلى الدائرة الحكومية وجلس ينتظر الموظفين. ومرت دقائق دون حضور أحد من الموظفين. ثم حضر موظف وسلم على القادم وحياه وقال له أنت تمثل الوزير ولو عرفت وضع هذه الدائرة لأحرقتها. فرد عبد العالي أنا لا أمثل الوزير ولي مهمة محصورة لا أتجاوزها إلى غيرها. وقال عبد العالي في نفسه هذا سوء خلق إنه يتدخل في أمور لا تخصه. ورأى عبد العالي أن ينتقل من هذا المكتب الذي اقتحم عليه إلى مكتب المدير فسأل عن مكتب المدير فقيل إنه مغلق وظل عبد العالي حيث وجد وقال أنا أجلس هنا حتى يحضر المدير والموظفون وبدأ الموظفون يحضرون ويأتون للسلام على عبد العالي القادم من الرياض العاصمة وبعضهم يقول : حي الله أهل الرياض! حي الله أهل الوزارة! حي الله رجال الحكومة! ومضى نصف دوام ذلك اليوم في سلام وتحايا وشاي وقهوة وكلام نافع وكلام غير نافع وكلام لا يضر ولا ينفع. وقام عبد العالي بتقديم قائمة فيها أسماء أواني وأرزاق يحتاجها في المنزل إلى مدير المكتب وطلب منه أن يكلف أحد معارفه بشرائها من السوق وإحضارها إلى المنزل، وانصرف عبد العالي إلى منزله وبقي فيه حتى الظهر وبعد الظهر كان في ضيافة صاحب المطعم الصومالي، حيث تناول شيئاً من طعام وانصرف إلى البيت وبعد العصر أحضرت الأواني والأرزاق، وكانت رخيصة الثمن. واستأجر عبد العالي رجلاً يقوم على تهيئة الطعام

وشراء ما يلزم للبيت. وبعد صلاة العصر حضر عبد الله الشهراني وسلم وأخذ الأتريك يريد أن يحقنه بالغاز ويشعله ويعيده فشكره عبد العالي على صنيعه وأخبره أنه اشترى سراجاً ولا حاجة لديه للأتريك فالسراج يكفي للإضاءة، ولكن عبد الله الشهراني ألح بعرض إعادة الأتريك مرة أخرى ولكن عبد العالي أكد له أن السراج يكفي فانصرف عبد الله الشهراني يحمل أتريكه مشكوراً وأمضى عبد العالي مساء يومه وليلته الثانية في أبها وفي الصباح وجد طعام الإفطار في المنزل وتناوله ثم خرج إلى العمل لبحث قضية من القضايا التافهة التي أوجدتها الأغراض وهوى النفس والمصالح الذاتية التافهة والمنافسة غير الشريفة حتى أوجدت لها ذيولاً وفروعاً وهوامش وما كانت لتستحق كل هذه التفريعات لو أنصف الناس. إن عبد العالي رجل قد خبر الحياة الوظيفية وما يحيط بها وأدرك من تجاريه أن الأغراض هي التي تثير المشكلات في وجوه الموظفين، إما إذا كان الموظف مرضياً عنه من قبل رؤسائه فإن أموره الوظيفية وما يخلق لها من مشكلات تحل ولا تترك للتعقيد. إن عمله يسير دون تعثر إذا رضي عنه الرئيس ولو كان يسير في خط غير مستقيم فالعلاقات الشخصية هي التي تهيئ البيئة المناسبة لحياة عمل الموظف وعلى أساس الرضى تتكيف ارتباطات الموظف. وفي الطريق إلى المكتب وقف عند دكان يبيع صاحبه جرائد فسأله عن الصحف الموجودة لديه فقال : توجد في أبها جريدة البلاد ؛ وجريدة المدينة، ولا يصلنا غيرهما. وتناول عبد العالي آخر عدد من البلاد وآخر عدد من جريدة المدينة وألقى عليهما نظرة ثم وضعهما في الحقيبة ومضى إلى المكتب. وفي هذا اليوم اكتفى بالتعرف على الموظفين والحديث معهم، إنه أسلوب في بحث القضايا لم يألفه

الموظفون. ثم طلب سيارة من المكتب وقام برحلة قصيرة خارج أبها لمصلحة حكومية تتعلق بالعمل الذي جاء من أجله، وقد شاهد في رحلته حدائق صغيرة في الأودية، كما شاهد مزارع في سهول قريبة من أبها والزراعة في أبها ليست واسعة حيث أن المزارع يحرص على زراعة ما يمونه وعائلته ويكفي لعلف ماشيته التي تدر اللبن. وقد شاهد في رحلته رجلاً من قبيلة عسير تجاوز المائة عام من عمره ومع كبر سنه فهو قوي الجسم سليم الحواس، ثم عاد من رحلته إلى منزله في أبها قبل العصر فتناول طعام الغداء واستراح قليلاً ونام ليله نوماً متقطعاً حيث كان في حرب مع البعوض الذي تغزو جحافله مدينة أبها فتشوه جمالها وتفسد على أهلها راحتهم في النوم ومن أثقل الأشياء على النفس وأبغضها البعوض حينما يهجم بشره ليمتص الدم الذي هو سبب من أسباب استقامة صحة الإنسان.

وفي الصباح زار عبد العالي المكتب الحكومي وبدأ في التحقيق الغير ضروري، واستمر في عمله أياماً وتوسع العمل وبتوسعه تكشفت الحقيقة حيث تبين له أن المدعى عليه برئ مما نسب إليه وأنهى التحقيق وقدم المعاملة إلى وزارته في البريد. وشرع في التحقيق في قضية أخرى وأنهاها وقدم أوراقها إلى وزارة الاختصاص في البريد هي الأخرى. أمضى عبد العالي مدة ليست قصيرة في أبها وكان يؤنسه أصدقاء من نجد وأصدقاء من الحجاز، أصدقاء حضر وأصدقاء بدو والبدو فيه رجولة والحضر فيهم رجولة ولكل من البدو والحضر أخلاق وعادات متقاربة لا تختلف إلا من حيث المران والعيش في المدينة وإلف الحضارة والمدنية فكان عبد العالي يخرج مع هؤلاء الأصدقاء يومياً بعد انتهاء الدوام الرسمي إلى ضواحي أبها ويعودون ليلاً فتعرف على وضع

سكان القرى القريبة من أبها ورأى وعورة الطرق وحياة المزارع البسيطة ورأى البدوي يرعى الأغنام، ورأى البدوي يرعى الإبل وتحدث إلى هذا وذاك تحدث إلى المزارع في مزرعته، وتحدث إلى الراعي حول إبله والراعي حول غنمه وشاهد تمسك البدوي بأرضه ورغبته في البقاء فيها قانعاً باليسير من العيش وسمع كلام الفلاح الدال على قناعته في العيش من دخله البسيط مع عائلته إنه يحب الأرض ويرضى بعيشة الكفاف لأن تكوين أرضه لا يساعده على توسيع رقعة الزراعة وغرس الأشجار، كما أن الأرض ليست وافرة الماء على ما يبدو وإلا فإن العربي طموح وقوي الإرادة والعزم والتصميم على العمل ولولا قوة إرادة هؤلاء العرب لما عاشوا آلاف السنين على أرض عسير صعبة المسالك ؛ قليلة الموارد، شحيحة الماء. وليتها لم تكن كذلك.

والوضع الاقتصادي بالنسبة للفرد في عسير لا يساعد على التوسع في العمل الزراعي حتى ولو توفرت الإمكانيات الزراعية. والبنك الزراعي هل استفاد منه المزارعون في عسير؟! هكذا يقول عبد العالي، وهو يظن أن المزارع استفاد فائدة محدودة ضيقة، أراها لا توجد ثقة بين البنك والمزارع. أما الإمكانيات لا تعطي رجال البنك مد المزارع بالمال الكبير.

وفي أبها كان الناس هذه الأيام يتحدثون في مجالسهم عن الحشود اليهودية على حدود سوريا، ويتحدثون عن تهديد الرئيس جمال عبد الناصر لليهود إن هم أقدموا على ضرب سوريا فسوف يضربهم في فلسطين، العربية المحتلة. هكذا كان يهدد رئيس جمهورية مصر اليهود في فلسطين اليهود الذين حشدوا قواتهم على حدود سوريا بضرب اليهود إذا اعتدوا على سوريا، وسكان العربية السعودية يكرهون ويعادون

المبادئ المخالفة للدين الإسلامي سواء وجدت هذا المبادئ في سوريا أو وجدت في مصر أو في العراق ولكنهم يرون نصرة الشعوب العربية في مصر وفي الأردن وفي سوريا لأنهم يرون أن الشعوب في بعض هذه البلاد مغلوبة على أمرها وسوف تتحرك في يوم من الأيام للخلاص من أي حكم يفرض نظاماً ومبادئ تخالف الدين الإسلامي، فتصحيح الأوضاع في البلاد العربية لابد أن يأتي من أبناء الشعوب العربية. فالعربي يأبى الظلم والقهر والبغي والاعتداء على المال والعرض والدم. وتلقى عبد العالي الأمر بالسفر من أبها إلى القنفذة فضحك وقال لمن حوله : يبدو أن الأمر بالسفر من هنا إلى القنفذة، يعتقد أن القنفذة من ضواحي أبها، في حين أن القنفذة لا ترتبط بأبها لا من طريق الجو ولا من طريق البر فلا مواصلات بين هذه وتلك، ولكن عليّ أن أنفذ الأمر فأنا موظف. وليس من حق الموظف أن يرفض تنفيذ الأمر الصادر إليه بعمل قاعدة مألوفة في عالم الموظفين. هناك صعوبات في الطريق ولا مواصلات منتظمة ولكن سوف أنفذ الأمر. وحزم أمتعته ودعا صاحب الدار وسلمه أجرة داره وودع أصدقاءه وركب سيارة حكومية واتجه إلى القنفذة ولم يكن الطريق المسلوك يتجه إلى القنفذة فقد فرضت سلوكه طريقة تكوين جبل السراة المطل على تهامة. وانحدرت السيارة من عتبة ضلاع إلى درب بني شعبة ووصلنا قريبة الدرب بعد المغرب من يوم ١٣٨٧/٢/٢٥هـ هكذا سجل التاريخ عبد العالي وحل ضيفاً على صاحب قهوة يقدم القهوة والشاي والماء للمسافرين ويجلس الناس على كراسي تصنع في منطقة جازان تسمى الواحدة منها «قعادة» جلس عبد العالي في مكان من ساحة أرض القهوة ومعه السائق وكان في السيارة جميع ما يحتاجه المسافر من طعام وماء وإذا بجماعة من البدو يجلسون قريبين من المكان الذي اختاره

عبد العالي وإذا بهم يدخلون في شجار مع صاحب القهوة لأنه أراد نقل قعادة من مكانهم دون استئذان. وانفضت المشكلة بدعوتهم إلى مكان عبد العالي وترك مكانهم إنهم من سكان الصمان في نجد إنهم من قبيلة بلجارش وكان عبد العالي يظن أن القبيلة حجازية وأنه لا يوجد منها أحد يقيم في نجد في البادية. وعرف من هؤلاء الجماعة أنها توجد أعداد من قبيلتهم تعيش بين الرياض والأحساء، إنهم ينتشرون طلباً للمرعى لإبلهم وغنمهم حيث ينتشر الأمن وحيث أزال الإسلام العداوة والأحقاد. وبات عبد العالي ليلته ومع ضوء الفجر استيقظ وتوضأ وصلى وأكل شيئاً من طعام الإفطار والقهوة والشاي وركب السيارة فأخذت طريقها إلى محائل فالقنفذة، مع الطريق الموازي لجبل السراة وكان الجبل على يمين المسافر والطريق يتجه شمال شرق وفي نهاية الضحى كانت السيارة تقف عند مقهى يقدم القهوة والشاي والماء للمسافرين ؛ وحوله أراضي مزروعة وهي أراضي ليست خصبة ؛ وفي المقهى رجل طويل القامة عملاق ضخم الجثة إنه معلم بناء يبني العشش من خشب الشجر وأعواد وأغصان الأشجار، إنه يأخذ أجرة يومية على عمله لا تزيد عن ثلاثة ريالات سعودية «ورقية» إنه رخيص الأجرة، فمن يصدق أن أجرة العامل في جزء من الجزيرة العربية المملكة السعودية ثلاثة ريالات في اليوم ! إنه رجل كثير الأولاد وقد قال لعبد العالي إن بنيه كثيرون وهو رجل فقير ؛ وصار يشكو من كثرة الأولاد فقال له عبد العالي استغفر الله فالأولاد نعمة إنهم زرعك وغرسك في الأرض وسوف ينمون ويكبرون وينتجون لك العمل والخير بعد أن تحتاج إليهم ؛ فازداد في شكواه. وهنا مد عبد العالي يده إلى جيبه وقال له : خذ هذه الألف ريال وأعطني هذا الطفل الصغير إنك لم تنفق عليه منذ وجد ألف ريال ! فقال والله أخشى العار

وإلا كنت أبيعه. قال عبد العالي أنت تحب أولادك في قرارة نفسك في عقلك ووجدانك، أنت تربيهم ولك أجر من الله، وسوف ينفعونك. وهنا سري عن العامل المعلم العملاق وقال : الحمد الله على كثرة الأولاد إنهم خير إن شاء الله عند الله وفي الدنيا. ثم استأنفت السيارة سيرها بعد أن ودع من فيها معلم البناء الذي أخذ يلوح بيده مودعاً. كانت السيارة تقل ثلاثة رجال عبد العالي وطالب علم، وسائق السيارة.

سارت السيارة على أرض صلبة مجدبة ليس فيها نبات ولا سكان وبعد الظهر أوقف السائق سيارته على ثميلة ماء في واد وتحت ظل شجرة يرقد شاب نظيف الملابس يرسل شعر رأسه ويتسلح بخنجر طويلة «ذريع» إنه كان نائماً وقد أيقظه السائق فإذا به ينتفض واقفاً يضع يده على سلاحه، ونظر من حوله فعرف أنهم جماعة من الحضر، من رجال الدولة السعودية، وأنه لا خوف عليه منهم. وسأله السائق أنت نائم هنا؟ أما تخاف أن تقتل؟ فقال : لو قتلت ما عليّ «معورة» أي لا يعبر بقتله أي يعاب وينتقص. وسأله لماذا هو نائم هنا وماذا ينتظر؟! قال : لقد وصلت من مكان بعيد على قدمي أبحث عن تبيع لي «عجل» ولأنني متعب نمت، وأنا انتظر التبيع الضائع لعله يرد الماء فأمسك به وأرده إلى مكانه الذي فقد منه. واستراح المسافرون وبعد الظهر واصلوا سيرهم متجهين شمالاً بمحاذاة جبل السراة ومروا بأودية وعين ماء ومزارع وأودية ومقاهي وباتوا ليلة ١٣٨٧/٢/٢٧هـ في واد.

وفي فجر يوم ١٣٨٧/٢/٢٧هـ واصلوا رحلتهم، ثم وصلوا إلى بلدة محائل صباحاً ونزل بها عبد العالي وسائق السيارة ضيفين لطالب العلم الذي رافقهم في الطريق، فأكرمهما كما أكرموه. نام عبد العالي ضحى ذلك اليوم ولم تكن من عادته النوم ضحى، وكانت مصر قد ضربت

فجر ذلك اليوم وشعر الناس بضربها وأخذوا يتابعون إذاعتها وبرامجها وأناشيدها الحربية والحماسية وبيانات الانتصارات العسكرية. كانت تعد الطائرات اليهودية التي أسقطتها. ويتابعون الإذاعة السعودية من الرياض، ومن جدة. وكان عبد العالي يغط في نومه لا يعلم ما جرى حيث لم ينم ليلته الماضية نوماً مريحاً. وكان صاحب الدار طالب العلم إنه القاضي يأتي إليه ليعلمه بالحرب فيجده نائماً فيعود. واستيقظ عبد العالي فأخبر بالانتصارات فرد : الله ينصر الإسلام والمسلمين على اليهود. وكانت السيارة تحتاج إلى إصلاح فبحث عبد العالي عن مهندس يصلحها وعدة لإصلاحها فلم يجد. واهتدى إلى رجل سوري مقاول على بناء مستشفى محائل فأصلح السيارة بعد مقابلة عبد العالي له ولم يأخذ أجرة على إصلاحها. إنه عربي من سوريا. وأقام أمير بلدة محائل حفل غداء تكريماً لعبد العالي ورفيقه السائق وحضر الحفل الشيخ القاضي، وكان الجو مشحوناً بأنباء الحرب اليهودية في مصر وأنباء انتصارات مصر وأنباء انتصارات اليهود. وفي يوم ١٣٨٧/٢/٢٨هـ غادر عبد العالي محائل وهو غير مرتاح لما يسمع من انتصارات اليهود وغير مطمئن لانتصارات مصر، كان يشك في الأمر. واتجهت السيارة مع الطريق إلى القنفذة نحو الغرب ؛ وبعد يوم وليلة وصل عبد العالي إلى القنفذة ومن المتناقضات أن يسافر الإنسان من أبها إلى القنفذة ؛ من الجو البارد إلى الجو الحار من مرتفعات جبل السراة إلى منخفض تهامة. وأهل أبها وأهل القنفذة كلهم عرب كرام طيبون، والفرق في الجو هو الفرق بين البرودة والحرارة في الصيف. لفت نظر عبد العالي اتجاهات الطريق من أبها إلى القنفذة فالطريق من أبها إلى درب بني شعبة يتجه جنوبياً، ومن الدرب إلى محائل شمالاً شرقاً ومن محائل

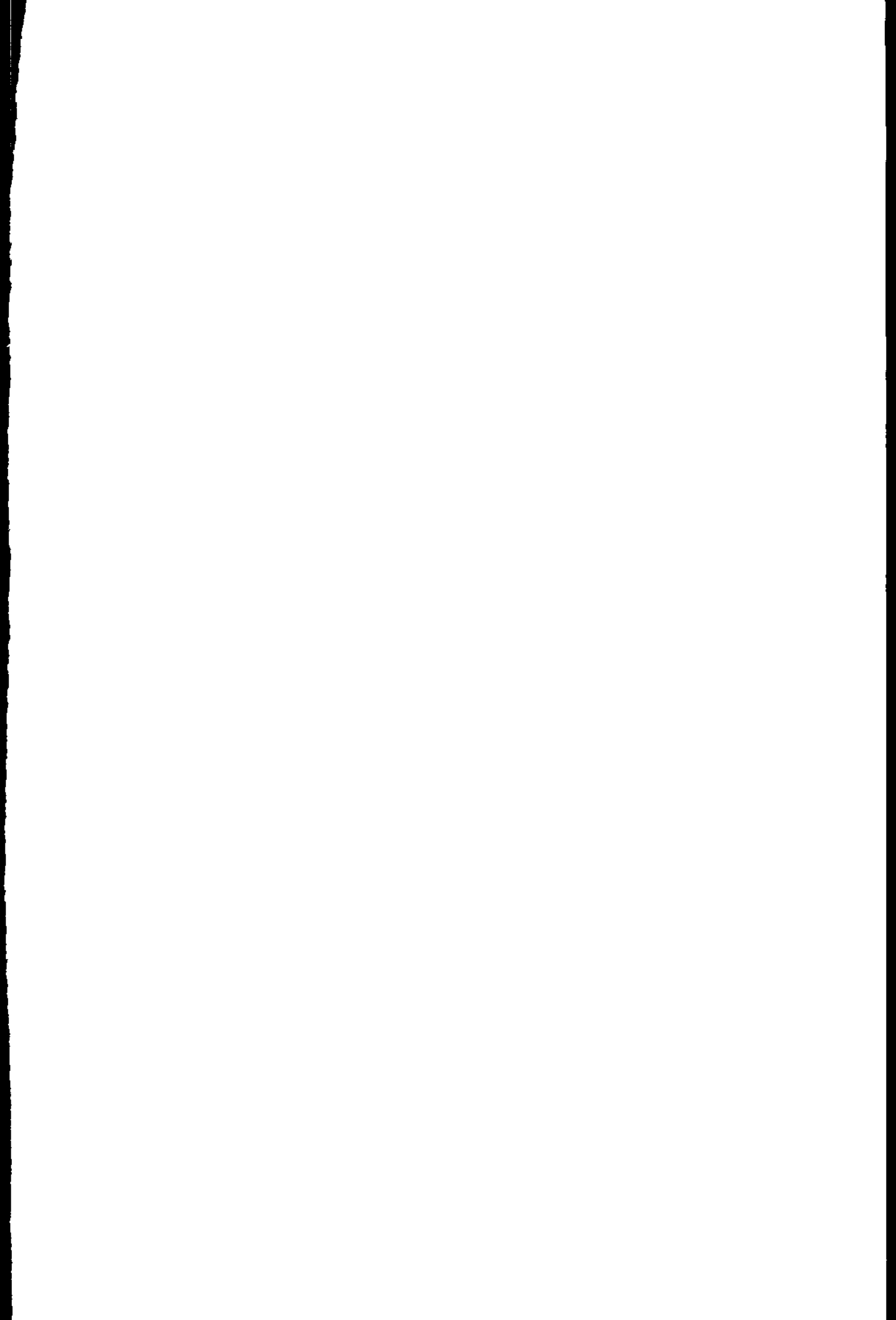
إلى القنفذة يتجه الطريق شمالاً غرباً ؛ الطريق يسلك السهل،ويقصد موارد المياه ويترك الاتجاه القريب الصحيح لموقع القنفذة من أبها. وهذه الطرق وضعت وسلكت أيام الخوف والمرور على القرى والمساكن والماء ليأمن المسافر على نفسه بعض الأمان. وفي القنفذة سمع عبد العالي أنباء انتكاسة الجيش المصري ؛ وهزيمة جيش مصر. لقد تأكد أن طيران الجمهورية المصرية قد حطم وقضي عليه وأن طيران مصر لم يقم بمهمة عسكرية تساند جيش المشاة المصري، وتساند زحف قوات مصر وتحمي جيش مصر وتصد زحف قوات اليهود. خسارة فادحة مني بها جيش مصر. وسمع عبد العالي بعد هزيمة مصر أنباء استسلام الضفة الغربية للغزاة اليهود المعتدين، ثم نبأ اعتداء اليهود على سوريا واحتلالها جزءاً من بلاد وأراضي ومرتفعات البلاد العربية السورية. وسمع نبأ اعتزال الرئيس المصري جمال عبد الناصر للرئاسة وتحمله مسؤولية الهزيمة. ثم عودته إلى الحكم لقد خيم الظلام البغيض على سيناء والضفة الغربية لنهر الأردن وعلى جزء من البلاد السورية ؛ ظلام الاحتلال اليهودي بهزيمة الجيوش العربية. لقد تجلت الحقيقة المرة فقد كانت الأنباء في اليوم الأول من الإذاعات العربية غير صحيحة، يا للأسف والخسارة. وعقب عبد العالي على أنباء الهزائم العربية بقوله : إن بريطانيا هي المسؤولة عما وصل إليه وضع اليهود في فلسطين هذا الوضع الذي هدد البلاد العربية المجاورة لفلسطين. لقد تقاطرت هجرات اليهود إلى فلسطين تحت الانتداب البريطاني باسم الرغبة في العيش في فلسطين بجانب العرب ؛ثم في عام ١٣٦٨هـ تحرك الأخطبوط اليهودي في فلسطين ليعلن عن وجوده وحمت بريطانيا هذا الوجود، ثم اعترفت أمريكا وغيرها. وصارت أمريكا تمد هذا الكيان اليهودي

بالمال والسلاح وتحمي الوجود اليهودي ؛ فبريطانيا مسؤولة عن زرع اليهود في فلسطين، والأمريكان مسؤولون عن سقيا وتنمية هذا الزرع اليهودي في جسم الأمة العربية، ومشكلة فلسطين لن تحل إلا بجلاء اليهود عن فلسطين وقيام دولة عربية فلسطينية في فلسطين وبغير هذا الحل فإن العرب يخدعون أنفسهم ويغالطون أنفسهم. وفي ليلة من ليالي إقامة عبد العالي في القنفذة كان في مجلس وفي المجلس عدد من الفلسطينيين فأخذوا يلومون الملك حسين ملك الأردن لمنعه تسليحهم ليدافعوا عن بلادهم فتذكر عبد العالي رجلاً من أهل بريدة يقال له عبد الكريم العليط كان يأتي بالسلاح إلى فلسطين يبيعه على المجاهدين في عام ١٣٥٨هـ وقتل وهو نائم في الصحراء في فلسطين فمن الذي قتله ونهب ماله ؟! وتذكر عبد العالي رجلين من أهل بريدة كانا يأتيان بالسلاح إلى فلسطين، وفي يوم من الأيام جاءا إلى عمدة القرية يخبرانه بوصولهما فأشار إليهما أن اهربوا واتركوا السلاح فهناك خطة للقضاء عليكما كان ذلك أيام الانتداب البريطاني كانت توجد خطط للقضاء على العرب في فلسطين وقيام دولة الاغتصاب الظالم اليهودي. وفي صباح يوم كان عبد العالي يمشي أمام مبنى المحكمة في القنفذة فاقترب منه رجل من بادية تهامة قدم نفسه وذكر اسمه وقال : إنه يريد كتابة كتاب لأمير منطقة مكة يبدي فيها معارضته بتعيين شيخ للقبيلة مكان الشيخ الذي مات. قال عبد العالي : لماذا لا يعين ولد الشيخ مكانه : قال إن ولد الشيخ عسكري جندي غائب والعسكرية أفضل له من المشيخة : قال عبد العالي ولماذا تعارض تعيين الرجل شيخاً للقبيلة قال : إنه بخيل ولا يحمي القبيلة. قال عبد العالي وما يعمل شيخ من كرم وراتب الجندي خير له من راتب المشيخة. قال البدوي : القبيلة تساعده تقدم

له هدايا في الأعياد، والقادم من سفر يقدم له هدية، ما تقصر القبيلة والحكومة تعطيه بعض الزكاة، لكن نريد شيخاً كريماً وفيه دين يجمع شمل القبيلة ويحافظ على مصالحها. وأمضى عبد العالي قرابة شهر في القنفذة أنهى مهمته التي جاء من أجلها ثم سافر إلى جدة على سيارة ضخمة من سيارات الشحن أخذ صاحبها سبعة ريالات لإركاب عبد العالي في مقدمة السيارة إلى جدة. وركب سيارة يزحم ركابها بعضهم بعضاً. ووصلت السيارة إلى الليث صباح يوم جمعة وذهب بعض الركاب لأداء صلاة الجمعة في الليث والبعض منهم بقوا في مكان يبيع صاحبه القهوة والشاي والماء «مقهى» لكونهم مسافرين ؛ ولا جمعة عليهم وبعد الصلاة أحضروا طعامهم وبدأوا يأكلون وصار أحدهم يتكلم عمن لا تجب عليه صلاة الجمعة وكان بين الموجودين رجل أسود البشرة وهنا قال رجل : اسمع يا عبد الخالق ما عليك جمعة. المتحدث يظن أن الأسود عبد وإن لم يكن مملوكاً لأحد. فعقب عبد العالي بقوله : الذي ما عليه جمعة المملوك أما الأسود فهو لا يعني العبودية وإلا لحكمنا على معظم سكان إفريقيا بالعبودية. وبعد الغداء استأنفوا سفرهم إلى جدة وكان يركب بجوار عبد العالي على المقعد الأمامي رجل من أهل الليث قال إنه صحب الجيش السعودي إلى الأردن من تبوك إلى الأردن وأنه قد أجرهم سيارته وأخذ أجرتها مقدمة قبل السفر من تبوك. وقص على عبد العالي كيفية دخول الجيش السعودي إلى الأردن في أواخر شهر صفر ١٣٨٧هـ وكان يسمي رئيس أركان حرب الجيش السعودي الذي أشرف على دخول الجيش إلى الأردن كان يسميه الضابط الكبير ويمدحه ويقول إنه استطاع أن يجنب الجيش السعودي خطر اعتداء اليهود عليه وهو في طريقه إلى الأردن وفي طريقه إلى خط الدفاع عن الأردن. ووصل

المسافرون في اليوم التالي إلى جدة مع غروب الشمس فعرض أحد الركاب وهو من الأشراف على عبد العالي النزول في داره وألح ولكن عبد العالي شكره وقال : في عادة أنزل في الفندق فقال الشريف الفنادق هذه ما نعرفها وودع كل منهما الآخر فاتجه عبد العالي إلى فندق صغير في باب شريف في جدة وارتاح ليلته، وفي الصباح خرج يسأل عن حلاق ليحلق شعر رأسه حيث لم يجد في بلدة القنفذة حلاقاً. فالقنفذة مدينة بدون حلاق، فقد سافر حلاقها إلى الباكستان بلاده وليس في القنفذة حلاقاً غيره. وبعد أن تمت عملية الحلق من يدي صبي الحلاق الذي يحسن الحلاقة اتجه عبد العالي إلى مكتب الخطوط وقطع «تذكرة إركاب» إلى الرياض ؛ ثم اتجه إلى قسم الحجز، وفي قسم الحجز يعرف المسافر متى يكون موعد سفره. وفي صباح اليوم الثاني عاد عبد العالي إلى المطار وفي يده حقيبة صغيرة ؛ وفي الأخرى جهاز «مذياع» فقد كان يتابع «أنباء نتائج الحرب» التي شنها اليهود على مصر ؛ وعلى الضفة الغربية من الأردن ؛ وعلى غزة وجزء من فلسطين وعلى سوريا. وبعد دقائق دعي الركاب ومن بينهم عبد العالي إلى ركوب الطائرة ؛ ولاحظ عبد العالي أن الركاب موظفون في وزارة واحدة وأنه يعرفهم واحداً واحدا ؛ أما هم فلا يعرفون عبد العالي، وكانت رحلة غير مريحة ؛ وكان الصمت يخيم على جميع ركاب الطائرة. هي نتائج الحرب أثرت على مشاعر الناس في هذه البلاد العربية ؛ أم أن موظفي تلك الوزارة يحرصون على الصمت. ووصلت الطائرة إلى الرياض، ونزل ركابها وانصرفوا دون أن يودع أحدهم الآخر. ووصل عبد العالي إلى بيته بعد رحلة دامت قرابة ثلاثة شهور كانت حصيلتها أوراق ؛ ومعرفة لرجال ودراسة لأوضاع وزيارة لبلاد ؛ عاد إلى أهله وقص عليهم شيئاً مما صادفه في رحلته. وفي اليوم التالي

ذهب إلى مكتبه في الوزارة وسلم على زملائه، وفي اليوم التالي قدم ما تجمع لديه من أوراق إلى مدير مكتبه الرئيس الذي قال : بعثنا لك برقية إلى القنفذة ولكن البرقية أعيدت إلينا.



إنها جارتنا !

اختار سامي الدار الواقعة في حي القرا بأبها من بين الدور التي عرضت عليه للأجرة ؛ وكانت الدار مكونة من مدخل يمر بحوش صغير فيه حجرة أرضية ربما أنها كانت مكان بقرة صاحب الدار في وقت مضى، وطابق علوي مكون من ممر ومجلس صحي وغرفتين، ومطبخ، وحمام، إنها دار كافية لرجل غريب قدم إلى أبها لتمضية وقت الصيف فيها، وجو أبها بارد صيفاً.

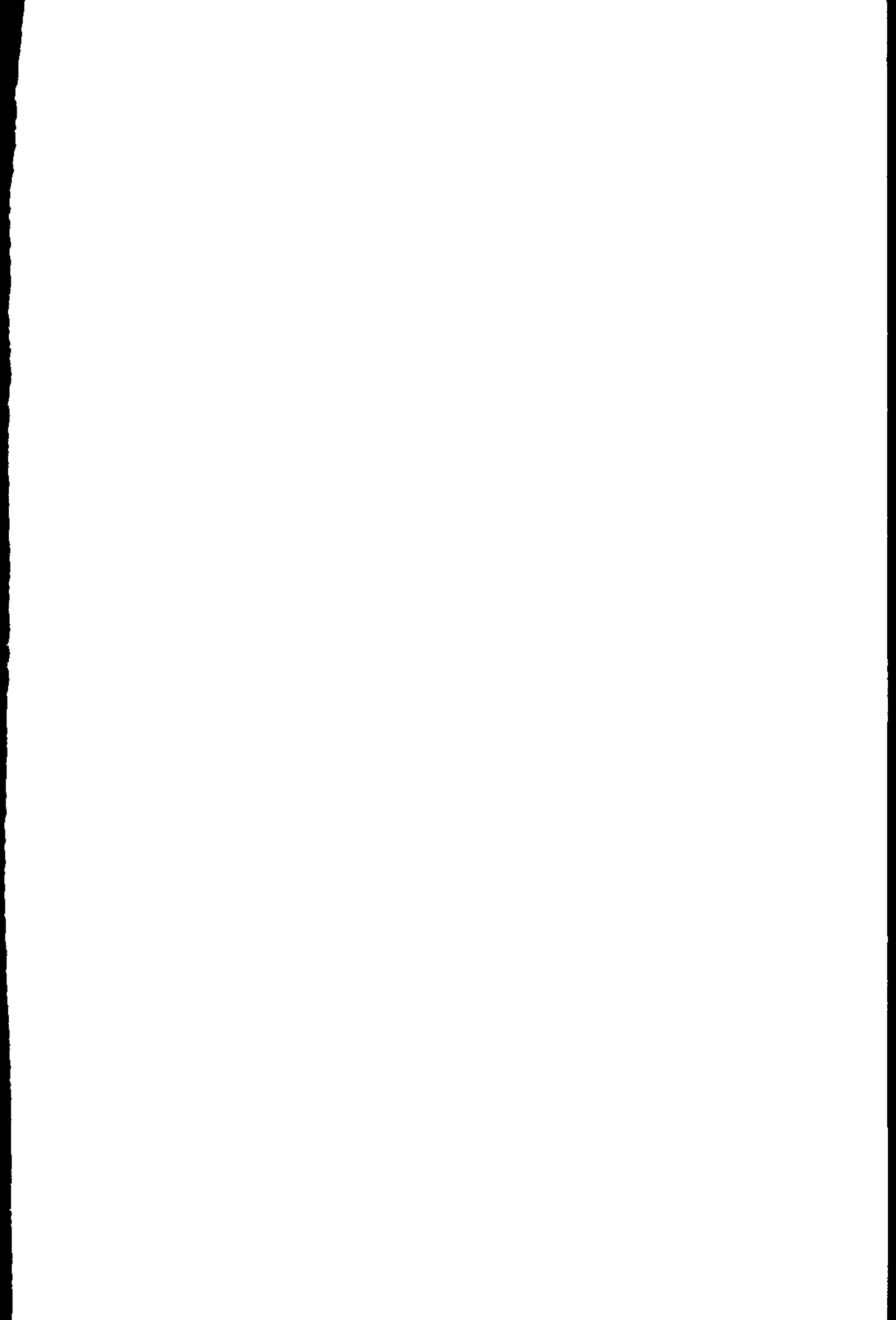
كان سامي قد اصطحب معه طباخاً جاء به من الرياض، وهذا الطباخ يحسن الطبخ، ويحتفظ لنفسه بحذاء سميك هو بقية ما كان في حوزته للجيش، لم يكن سامي ولا الطباخ يعلمان أن دوراً أرضياً من البيت له مدخل خاص في شارع آخر قد أجر على امرأة تهامية اعتادت المجيء إلى أبها للعمل في الصيف بالبيع والشراء، ولكن هذه المرأة وقفت صباح يوم في الطريق وحيت سامي عند خروجه وعرفت بنفسها بالجارة فرد عليها التحية : وقال لها : أراك متعبة عسى ألا تكوني مريضة ؟ فقالت : موروده. ولما عاد سامي إلى الدار سأل الطباخ عن كلمة موروده! ففسرها بقوله : محمومة، أي أنها مريضة بالحمى جاءت بالحمى من أرض تهامة وماء تهامة. إن جراثيم الحمى موجودة في بعض مياه تهامة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب حيث يعيش البعوض الناقل لجرثومة الحمى. وأشفق عليها سامي فأمر طباخه أن يقدم لها طبق طعام وصحن خضرة وذهب بهما الطباخ فأخذتهما ولكنها لم تشكر الطباخ ولا سامي بل قالت : لا تأت لنا بشيء من الطعام نحن عندنا طعام، أنا أصنع خبزة من البر أكتفي بها! وعاد الطباخ غاضباً عليها لماذا

تـرد رداً غيـر جميل في نظره وما كان ردها غير جميل ولكنه سوء الفهم. وفي صباح يوم آخر وقفت المرأة في طريق سامي لا لتحييه ولكن لتقول لـه : إنكم مثل البقر تضربون بأرجلكم فوق سطح داري فيسقط علينا الغبار من السقف. وزادت بلومها : إنكم لا تهتمون بمن تحتكم. واعتذر سامي، ونصحها بالذهاب إلى المستشفى للعلاج ومضى في طريقه إلى سوق البيع والشراء في أبها ليتعرف على ما فيه وليقضي بعض الوقت فهو في إجازة صيفية. ولما عاد إلى المنزل قال للطباخ : الحذاء التي تلبسها في المنزل تؤذي جارتنا إذا مشيت بها فوق سقف منزلها، ولم يرد الطباخ، ولكن صار يزيد في قوة ضرب قدميه إذا سار في المنزل ليؤذي الجارة. إنه شاب شرس الطبع. استمر الطباخ في عناده يؤذي جارته، واستمرت الجارة في شكواها فأكد سامي على طباخه بترك لبس الحذاء العسكري في المنزل، والاكتفاء بلبس حذاء خفيف الوزن قدمه له، ولكن الطباخ لم يغير حذاءه ولم يغير طريقة مشيه في المنزل إنه يعاند المرأة الجارة ويمعن في أذاها. ولم يفلح سامي في التوفيق بين سلوك الطباخ داخل الدار وبين هدوء المرأة في منزلها والمحافظة على كرامتها، وأخذ يفكر في الأمر هل يستغني عن الطباخ ؟ أم هل يرحل من الدار إلى دار أخرى؟ أم يترك الطباخ للمرأة تنتصف منه؟! وفكر سامي سائلاً نفسه هل هناك دوافع لإمعان هذا الشاب الشرس الطبع في إيذاء هذه المرأة سببها سوء علاقات قبلية بينه وبينها، أم أنه يشفق عليها فترة إقامتها في أبها فظن أن عمله السيئ يعجل برحيلها إلى قريتها أم أنها تصرفت معه تصرفاً أحنقه عليها غير رفضها للطعام ! وتوصل سامي في تفكيره إلى الإقدام على شكوى طباخه إلى زواره لعل أحد منهم يلومه ويعنفه ويقنعه بترك أذاها وإلا فله الطرد من العمل. واستطاع زائر إقناعه بترك

أذى المرأة في منزلها بخلع الحذاء المتين إذا دخل المنزل وانحلت المشكلة. إنها صغيرة ولكنها كانت كبيرة بالنسبة لكرامة المرأة وإصرار الطباخ على الأذى. وهدأ غضب الجارة بعد أن غير الطباخ حذاءه وصارت تقف في الصباح قبل أن تذهب إلى طلب الرزق لتحية سامي لا للشكوى.

وفي ليلة من ليالي شهر ربيع الثاني كانت المرأة الجارة تقيم حفلة ساهرة راقصة، إنها قد خرجت عن تقاليد المجتمع. إن منزلها الصغير يعج بالضيوف. ويسمع قرع الدفوف، وضرب أقدام الأجسام الراقصة. لقد بدأ قرع الدفوف من الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت الغروبي ؛ فأثار الصخب الطباخ الذي قال لسامي : إنني سوف أذهب إلى الشرطة لإحضارهم إلى هذه المرأة التي تؤذينا بالدف والرقص والغناء. فقال سامي : إنها جارتنا. إنها أسفل ونحن في الطابق العلوي. فقال الطباخ وإذا كانت جارتنا نتركها تؤذينا، وإنها تؤذينا وإن كانت في الطابق الأسفل. قال سامي : إنها جارتي أنا، وهي لا تؤذيك ولا تقلق راحتك ولا تسئ سمعتك بأذاها وسوف اعتبرك مسؤولاً إذا وصل إليها سوء هذه الليلة. أما أنا فإنني سوف أنام على قرع الدفوف. وخرج الطباخ ونام سامي كما أراد. وإذا بطارق يطرق الباب ويكرر طرق الباب بعنف وإصرار وينادي : سامي! سامي! فاستيقظ سامي استجابة لطارق الباب ونهض من مرقده وكان يظن أنها الشرطة جاءت لتسكت قرع الدفوف الذي أزعج الجيران ظانين أن منزله هو مكان الحفلة الراقصة. إنه لم يسمع صوت سمر راقص. واتجه إلى الباب متثاقلاً، وكم كانت دهشته كبيرة حين فتح الباب ووجد شاباً يحييه ويقبله ويحيي قدومه إلى أبها وليس معه أحد ويمضي يعرفه بنفسه : أنا غانم! أنا غانم! لقد سري عن سامي ودخل إلى المجلس يسير بجانب غانم، ولما جلسا في المجلس قال سامي : إنني

كنت نائماً. فاعتذر غانم عن مجيئه في وقت متأخر وقال : إنني لم أعلم بوصولك إلى أبها إلا منذ دقائق فجئت إليك إنني أدعوك إلى بيتي، وأصر غانم على ذهاب سامي معه إلى البيت ليؤنس كل منهما الآخر فقال سامي : لا وحشة في أبها، أنها بلد أنيسة، وأهلها طيبون، ولن أذهب معك في هذا الوقت المتأخر من الليل، فإن أردت النوم هنا هيأت لك فراشاً، وإن أردت البقاء حتى تطلب النوم وتذهب إلى دارك فعلى الرحب والسعة ولك ما أردت. وخرج سامي إلى المطبخ وأحضر دلة وقدم القهوة لغانم، وبقي غانم دقائق في دار سامي ثم انصرف على أمل اللقاء في الصباح وودعه سامي عند الباب وعاد إلى فراشه ليستكمل نومه الهانئ.



كان يحبها

في بلدة طرف الشعيب رجل اسمه أبو عقال يملك ثروة مالية متوسطة؛ إضافة إلى وجاهته الوراثية، ولكن وجاهته كانت تمتص شيئاً من ثروته فضيوف بلدته يقصدون داره أكثر مما يقصدون غيرها من دور البلدة، وقد تكلفه وجاهته ما لا يريده، ومما لا يريده أخذ جاريه لديه، لا لأنه يغالي بثمنها، ولا لأنه يستفيد منها فائدة كبيرة في أمور المنزل لا يقدر عليها سواها، ولكن لأنه قد زوجها لمملوكه مبروك، ومبروك رجل صالح فالح يقوم بخدمة سيده أبي عقال ويؤدي الشعائر الدينية بأمانة وإخلاص وخضوع لخالقه. وقد فوجئ أبو عقال بطلب شيخ قبيلة منه أن يهبه الجارية المزوجة لمبروك، فقد علم شيخ القبيلة أنها جارية نشطة تجيد عمل ما يوكل إليها من أعمال المنزل، ولعلمه بكرم أبي عقال طلبها منه دون أن يعرض له ثمنها، فقام أبو عقال بزيارة رجل اسمه أبوحاضر وأخبره أن شيخ القبيلة «ذكر اسمه» طلب الجارية زوجة مبروك، وأن شيخ القبيلة لم يطلب مبروكاً وأن الجارية كما يعلم هي زوجة مبروك ؛ وكرر أبوعقال قوله مؤكداً كلامه : شيخ القبيلة لم يطلب مبروكاً وزوجته الجارية ؛ وإنما طلب الجارية لوحدها، فكيف تخليصها من زوجها مبروك ؟! فكر أبوحاضر قليلاً ثم قال لأبي عقال : نطلب من مبروك طلاقها ونقنعه بطلاقها طلقة واحدة، ثم بعد استبرائها نبعثها لشيخ القبيلة. فاستدعى أبوحاضر الذي هو رجل دين مبروكاً وقال له : هذا عمك أبوعقال يريد منك تطليق زوجتك، فتأثر مبروك وغالبه البكاء فبكى، ثم قال مبروك يا شيخ أحبها. قال أبوحاضر صحيح أنك تحبها، ومادمت تحبها طلقها طلقة واحدة، وكان مبروك يعرف أن الرجل إذا طلق امرأته بطلقة واحدة يستطيع

أن يراجعها ولكنه لا يعرف أن المملوك إذا طلق بطلقة واحدة فلا رجعة له واعتبر مبروك طلاق زوجته بطلقة واحدة تيسيراً له فطلقها بطلقة واحدة. كانت مكيدة أو حسن تخلص من الشيخ لأبي حاضر أراد بها فكاك الجارية من المملوك مبروك يوم كان المماليك من البشر يباعون ويشترون مثلما تباع وتشترى الإبل والغنم والمتاع لتوهب لشيخ القبيلة، وكتب أبوعقال كتاباً لصديقه شيخ القبيلة يخبره فيه أنه بعث إليه بالجارية التي طلبها مع حامل الكتاب، وأن اسمها سعدية وسلم الكتاب والجارية سعدية لرجل أمين خف لإيصال الجارية والكتاب فركب ذلولاً وأدخل الجارية في خباء بيت النساء ؛ واتجه إلى مجلس شيخ القبيلة الذي خف للقائه والترحيب به فسلم عليه وسلمه الكتاب، فأعطاه لمطوعه فقرأه عليه بهمس دون أن يسمع من في المجلس ما في الكتاب. وقطع شيخ القبيلة همس المطوع حين رفع صوته منادياً زوجته سميها بشرى! سميها بشرى! يعني سعدية لقد وهبت سعدية له، وودعه الرسول وعاد إلى أبي عقال، وكان مبروك على علم بذهاب زوجته سعدية، فاستقبله مبروك عند وصوله وسأله عن سعدية متى تعود إليه، ولم يستطع الرسول أن يخفي ضحكة من مبروك فضحك. وأدرك مبروك أن في الأمر عتابه ضيع عليه زوجته سعدية التي يحبها، ومع يأس مبروك فقد غالط نفسه بانتظار عودتها ولما تمكن اليأس من قلبه طلب أن يذهب إلى زوجته لمراجعتها وإحضارها فليس له أمل في رجوعها دون ذهابه وراءها. فقيل له : إن طلاقه لها بطلقة واحدة يبعدها إبعاداً لا قرب بعده، فبكى ورفع يديه إلى السماء ودعا الله على أبي حاضر بدعائه ((يا الله تودي أباحاضر على نجران في القريب العاجل)).

كان مبروك لا يعرف بلاد أبعد مكاناً من نجران، ولو عرف بلاد أبعد منها مكاناً لسأل الله أن يوصل أباحاضر إليها، وبعد عشرة أيام من دعاء

مبروك على أبي حاضر بالإبعاد جاء أمر رسمي بترحيل أبي حاضر إلى نجران ليس مطروداً، وإنما ليتولى عملاً حكومياً فيها. استجاب الله دعاء مبروك الذي أخذت من يديه زوجته التي قال إنه يحبها، وصدقت دموع عينيه كلماته، ولكن المكيدة استطاعت أن تلعب دورها في فكاكها منه لأنه ما كان يملكها وإنما هو وهي مملوكان لسيدهما أبي عقال، وأدرك أبوعقال الذي كان على علم بدعاء مبروك على الشيخ أبي حاضر أن الله استجاب دعاء مبروك فأعتقه من رقه، وترك له حرية البقاء أو الانتقال إلى بلد آخر. فانتقل مبروك من بلده طرف الشعيب إلى مدينة بريدة فوجد فيها حرية وزوجة وراحة بال ورغد عيش، وما كان ليستطيع البقاء في بلدة كان يعيش فيها مع محبوبته سعدية التي فارقته وقال إنه يحبها وصدقت دموعه كلماته ولكن كلماته وضعت حول قلبين قاسيين، قلب أبي عقال وقلب أبي حاضر الذي لقي جزاءه بإبعاده إلى نجران وظل مبروك يسأل كل من يجده في سوق الماشية في مدينة بريدة من رجال قبيلة الشيخ الذي استوهب سعدية عن سعدية ولكن رجال القبيلة لا يعرفون لدى شيخهم جارية اسمها سعدية، وكان من يسأله منهم يقول له شيخ القبيلة ما عنده إلا جارية واحدة اسمها بشرى فينصرف مبروك غير مهتم بالجارية التي اسمها بشرى ؛ كان يسأل عن سعدية التي يحبها.

١٣٩٦/٢/٤هـ

الشمس التي لا تغرب !

أوقف صاحب سيارة الشحن سيارته عند بيت الوجيه في حائل ليستظل تحت ظل البيت الرفيع البناء فخرج إليه أحد الحراس وسأله إلى أين أنت مسافر؟ قال إلى الأحساء، فأسرع الحارس إلى سيده يخبره أن سيارة تقف بجوار البيت يريد صاحبها السفر إلى الأحساء ويمكن إرسال الإرسالية المحضرة لديه عليها فصاحبها يتوسم فيه الخير فدعا صاحب البيت بصاحب السيارة فحضر أمامه فسلم ورد عليه صاحب البيت السلام ثم سأله إلى أين هو مسافر؟! فقال إلى الأحساء. فعرض عليه حمل صندوق سمن ولفافة فيها ملابس وكيساً داخله مائتا جنيه فقبل حملها على سيارته فأحضرها أحد رجال الوجيه ووضعوها في السيارة السمن في مكان واللفافة والجنيهات في مكان آخر قدم الوجيه الأجرة لصاحب السيارة فأخذها دون تردد وكان الوقت ظهراً في فصل الصيف فدعي صاحب السيارة ومن معه من الركاب للراحة داخل البيت حتى يبرد الجو في أول العصر تحركت السيارة بركابها مع طريق غير معبد وقائد السيارة هو صاحبها وفي الطريق يقف ليتفقد الأمانة التي بسيارته ووصل إلى الأحساء في اليوم الخامس من سفره فتفقد الأمانة قبل تسليمها للمرسل إليه وهو شيخ كبير شب سكان الأحساء على هيبته فوجد السمن سالماً ووجد كيس الجنيهات قد تخرق وانفلتت منه جنيه واحدة ووجد لفافة الملابس حصل فيها تمزق لكن محتواها سليم فغير كيس الجنيهات ووضع جنيهاً من عنده مكان الجنيه التي فقدت وحمل الجنيهات في يد واللفافة في اليد الأخرى وذهب إلى سوق الأحساء ووقف عند رفاء وطلب منه رفو الشقوق التي في قماش اللفافة فلمح

إسم المرسل إليه فامتنع عن التعرض لها وصاحب الاسم يخافه الناس وتطير قلوبهم لذكر اسمه مع أنه لا يعتدي على أحد لكنه شديد البطش بمن يعتدي على أحد وانتقل إلى رفّاء آخر فرأى إسم المرسل إليه عليها فامتنع عن إصلاحها وصار الرجل يزرع أسواق الرفائين وكلهم يعتذر، فاتجه إلى الخياطين فاعتذروا هم الآخرون ومالت الشمس للمغيب وهو يبحث عن خياط أو رفاء يتعاون معه فلا يجد ولم يوفق على تغيير القماش المتخرق ووضع قماشاً بدله وكتابة الاسم عليه من جديد فمن ذا يجرأ على كتابة اسم الشيخ المهيب من جديد وذهب باللفافة على وضعها بعد غروب الشمس قائلاً لنفسه إذا غربت الشمس التي تعود الناس على غروبها فإن الشمس التي لا تغيب هي شمس الحقيقة وذهب للشيخ صاحب الأمانة فسلم عليه وقدم له رسالة من المرسل وقدم له صندوق السمن والجنيهات واللفافة فأمر وكيله باستلامها وبعد يومين علم أن صاحب السيارة وضع جنيهاً من عنده مكان الجنيه المفقود فاستدعاه ورد عليه الجنيه وقدم له مكافأة قدرها أربعمائة ريال سعودي فضة فأخذها صاحب السيارة شاكراً وخرج من منزل الشيخ المهيب وهو يقول الشمس التي لا تغيب هي شمس الحقيقة.

١٣٩١/٧/١٧هـ

Raghda